أين تكمن معجزة الإسلام ؟

د أحمد نصير

تـمـهـيـد :-

يمر الزمان ومازال الناس يجادلون في الله ، وتمر الآيات والمعجزات والنذر ولا يزال التكذيب بتلك الآيات قائما ، فتقترب ساعة العذاب بالكافرين والمكذبين ، وليس ثمة مصدق بالآخرة إلا قليلا ، معللين ذلك بأنهم يبحثون عن الدلائل المادية التي تؤكد صدق ما أخبر به النبي محمد ﷺ من وجود الآخرة والبعث والحساب ثم الجزاء .

حقيق أن الله أيد أنبياءَه بالمعجزات الدالة على صدق نبوتهم ، وكانت من جنس ما تميز به قومهم ، أي من جنس ما تأثرت به حياتهم تأثيرا جُرِبُوا به ، فكانت المعجزة النبوية في مثل ذات التأثير لتشدتهم وتجذبهم إلي الإيمان ، كما قال تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (إبراهيم 4) .

فها هو نبي الله نوح عليه السلام اتهمه قومه بالجنون (وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) لاسيما عندما شرع في بناء سفينة في الصحراء ، (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) (هود 38) ، ولكنهم لم يقيسوا الأمور بإنصاف ، فهل يقدر مجنون أن يشييد سفينة ضخمة ويحشد فيها من كل زوجين اثنين ؟ وهل يملك عجوز بلغ من العمر ما يقرب الألف عام تلك القدرة حتى يتم بناءها ؟ ما لم يكن الله قد أعانه على ذلك بقوله (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)(هود 37) ، وهل يتصور أن تجتاز هذه السفينة أمواج التي كالجبال دون أن تغرق ؟ ما لم يكن قدر الله ألا تغرق (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) (القمر 13) ، لكن الله سيرها الله (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ) (القمر 14) ، فكانت معجزته آية باقية إلى يوم القيامة ، (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) (العنكبوت 15) ، وقد تحقق ذلك علميا بعدما قسم علماء الجيولوجيا الحياة على الأرض إلى ما قبل الطوفان وما بعده .

كذلك نبي الله هود كاد قومه أن يكذبوه لما لم يأتهم بمعجزة مادية (قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (هود 53) ، فكانت المعجزة أن تحداهم هذا العبد الضعيف المتوكل على الله ، وهم أولوا قوة ويتميزون بشدة البنيان ، وضخامة الأجساد ، (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(هود54-56)

وها هو نبي الله صالح أيده الله تعالى بمعجزة الناقة خلقها الله من الصخر ، ورأوا معجزة ولادتها من الصخر بأعينهم ، ولكنهم خالفوا أمر نبيهم فعقروها ، وقد أمرهم بألا يمسوها بسوء

وكذلك نبي الله لوط أيده الله تعالى بمعجزة الملائكة التي طمست أعين القوم ، ثم أتي نبي الله موسى عليه السلام وقد أيده الله بمعجزات دحضت السحر الذي كان فاشيا عند فرعون وقومه

فتحدثت سورة القمر عن جميع هؤلاء ... ، ويبدو أن القاسم المشترك بين هؤلاء الأنبياء الخمسة (نوح ، هود ، صالح ، لوط ، موسى) أنهم كانوا مستضعفين من قومهم ، نبي الله نوح يشكو لربه أنه مغلوب ، ونبي الله هود فكانوا يستهزئون به ويقولون له (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ بسوء) أي أصابته لعنة الآلهة حتى يتفوه بما يقول من الحق ، فانتصر الله له ، ونبي الله صالح أمر قومه بألا يعقروا الناقة فعتوا أمر ربهم وعتوها ليأخذها حقها في شرب الماء طمعا وعنادا ، فانتصر الله لها فأهلكهم ، ونبي الله لوطا كان يأوي إلى ركن شديد ولا يملك من الأمر شيء فاستنصر ربه فنصره ، ونبي الله موسى كان معه فئة قليلة من المؤمنين الذين آمنوا به على خوف من فرعون وملئه ، وكان يستخف بهم ويقول شرذمة قليلون ، فأهلكه الله وجنده ،ونجى المؤمنين .

ونرى الرابط المشترك – من جهة أخرى – أن قومهم بلغوا ما بلغوا من العتي والكفر والعناد والفجور والبطش ، ولم يكن بأنبيائهم منعة منهم ، ولكن الله تعالى حفظهم ونصرهم جميعا ، لتؤكد السورة على معية الله بالمؤمنين ، كما في قوله (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ) ، فسنة الله القدرية أنه إذا قامت الحجة على الناس ، وقد ساق الله لهم معجزة مادية ، فإذا كفروا بها ، وقابلوها بالتشكيك والتكذيب ، فلابد وأن ينحاز الحق للذين آمنوا ، لتكون الغلبة للمؤمنين ، والهلاك والخزي على الكافرين .

وبالعودة إلى ما تحدثنا عنه يثور التساؤل عن معجزة الإسلام ، بماذا أيد الله نبيه محمد ﷺ ؟ فأجابت سورة القمر على هذا التساؤل بأسلوب تشويقي فريد ، وهذا ما تميز به القرآن من ناحية الإعجاز اللغوي ، إذ نفت الآيات أن تكون معجزة النبي ﷺ حسية كسائر الأنبياء قبله ، يقول المولى سبحانه (**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**) (الأنعام 7) ، فالاستغراق في الماديات للتدليل على إعجاز النبي أو الرسول ليس من شأن الإسلام حيث **يكتفي بالإتيان بمعجزة** مادية أو أكثر **دون الاستغراق في تكرار** المعجزات المادية **حتى يتيح الفرصة للفكر وإعمال العقل** في التوصل **للمعجزة الكبرى** والتي تكمُن في **المنهج والمضمون** ، فالعبرة ليست بكثرة المعجزات والآيات وإنما بحجتها على الناس يقول الحق تبارك وتعالى (**وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**) (يونس 101) .

بيد أن قريشا سألت نبيها محمد ﷺ أن يشق لهم القمر لتكون تلك المعجزة شاهدة على صدق دعوته ، ولم يكتفوا بمعجزة القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين على نبي أمي يعرفون سيرته منذ ولادته ، وهو عين ما سأله قوم نبي الله عيسى عليه السلام لما سألوه أن ينزل لهم ربهم مائدة من السماء تكون لهم عيدا ، أي آية ، فماذا كانت إجابة المولى لهم (قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ) (المائدة 115) ، حيث لم تكفهم ما أيد الله به نبيه عيسى من معجزة "إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل إليه قدرتهم"[1] ، ورغم ذلك سألوا الله المزيد من المعجزات المادية .

1) يراجع في ذلك ما ذكره ابن حجر العسقلاني في شرحه لحديث البخاري رقم 4696 فتح الباري في شرح صحيح البخاري

لا شك أن الإسلام انفرد بمعجزة ليست من جنس معجزات الأنبياء قبل النبي محمد ﷺ- وإن كان الله تعالى قد أيده بالعديد من المعجزات المادية كشق القمر – إلا أن أكبر معجزة أيد الله بها نبيه محمد ﷺ تلخصت في المنهج الذي جاء به رسوله ﷺ وأُمِر به واتبعه وأُمر باتباعه ، قال سبحانه (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ **وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)** (المائدة 48) ، يقول النبي ﷺ **(ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)**[1] ، قال النووي : (اختلف العلماء في هذا الحديث على أقوال — وكلها صحيحة – أحدها أن كل نبي أعطى من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء فآمن به البشر ، وأما **معجزتي العظيمة الظاهرة فهي القرآن الذى لم يعط أحد مثله** فلهذا قال أنا أكثرهم تابعا ، والثانى معناه أن الذى أوتيته **لا يتطرق إليه تخييل بسحر وشبهة** بخلاف معجزة غيرى فإنه قد يخيل الساحر بشيء مما يقارب صورتها كما خيلت السحرة فى صورة عصا موسى ﷺ ، والخيال قد يروج على بعض العوام ، والفرق بين المعجزة والسحر والتخييل يحتاج إلى فكر ونظر ، وقد يخطئ الناظر فيعتقدهما سواء ، والثالث معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم ، **ومعجزة نبينا ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيامة مع خرق العادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله** مجتمعين أو متفرقين فى جميع العصور مع اعتنائهم بمعارضته ، فلم يقدروا وهم أفصح القرون مع غير ذلك من وجوه إعجازه المعروفة والله أعلم)[2] .

مما تقدم يتبين أن سورة القمر نزلت بمناسبة **معجزة شق القمر** ، حيث أيد الله نبيه محمد ﷺ بتلك المعجزة ورآها العرب في عصره ، لكنهم كابروا وعاندوا وأصروا على تكذيبه فيها واتهامه ﷺ بأنه سحرهم ، فحكت السورة للرسول محمد ﷺ أن ما فعلوه معه من تكذيبهم له – بالرغم من هذه المعجزة – قد سبقهم إليه الأمم التي قبلهم ، فها هم **قوم نوح** كذبوه واتهموه بالجنون فأغرقهم الله ، وها هم **قوم عاد** كذبوه كذلك فأُهلكوا بالريح ، **وقوم ثمود** لما كذبوا أُهلكوا بالصيحة ، **وقوم لوط** لما كذبوا أُهلكوا بالحجارة ، **وقوم فرعون** أغرقوا كذلك لما كذبوا بالآيات التسع الحسية التي أيد الله بها نبيه موسى عليه السلام ، فكان أولئك جميعا مجرمين ضالين **لهم عذاب وسعر** ، ولم ينج من العذاب إلا المتقين الذي أعد الله لهم **جنات ونهر** .

وعليه تكون السورة قد أجابت على سؤال السائل بماذا أيد الله نبيه محمد ﷺ ؟ حيث أجابت بالنفي ، بمعنى أنك إذا أردت أن تبحث عن **معجزة الإسلام** ، فلا تجهد نفسك في البحث عن معجزة حسية أو عادات خارقة أو مشاهد غير مألوفة ، فالله تعالى لم يصرح بمعجزة حسية يؤيد بها النبي محمد ﷺ حتى لا ينال هذه الأمة هلاك كما أهلك السابقون ، فقد سبق أن كذب قوم النبي ﷺ بمعجزة غير مألوفة تمثلت في شق القمر ، ولو استطرد الإسلام في تأييد النبي بمعجزات من جنس ذلك لهلك المكذبون جميعا ، وإنما الذي يريد أن يعرف معجزة النبي محمد ﷺ فعليه بأن يقرأ هذا الكتاب ،" **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ** فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ " فذلك هو معجزة الإسلام.

---

[1]) رواه مسلم ج 1 ص 134 رقم 152
2) شرح النووي على مسلم ج2 ص 188

ويجدر التنويه إلى أن آيات هذه السورة قد **خلت من الإشارة إلى آيات الله الكونية** كما في سائر السور كالسماء والأرض والشمس والقمر والجبال والبحار والنجوم والأشجار ...الخ ، **اكتفاءً بالإشارة إلى الظواهر الكونية التي عذب الله بها** الكافرين كالطوفان والصاعقة والرعد والصيحة التي عذب بها قوم نوح وعاد وثمود ، والحجارة البركانية التي قذفت من السماء ليتعذب بها قوم لوط والزلازل التصدعية وانشقاق البحر حال غرق فرعون بما يسمى بالزلازل التصدعية .

كما خلت من الأوامر التكليفية العملية كسائر السور مثل الأمر بالعدل المنشود ، والتكافل الاجتماعي ، وحسن جوار ، وإكرام الضيف ، والحياء ، شيم الأخلاق .. الخ ، لكنها اقتضت بأسلوب القصص التلميح لتلك المعاني ، وذلك بإنزال العقاب على القوم الذين **لم ينتهوا عن المنكر** الذي تشمئز منه الطبائع واجتناب الفواحش التي تنفر منها القلوب السليمة ولا تستسيغها العقول الرشيدة كالخمر ، والزنا ، والسرقة أو الغصب ، والقتل .. الخ – ، بل أشارت السورة إلى الاضطهاد الديني والإرهاب الفكري كما في قوله تعالى (وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

واستظهرت أنفة الكفار والطبقة الاستقراطية المترفة في المجتمع كما في قوله تعالى (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ) كناية عن الاستعلاء والاستكبار ، وأشارت إلى الإسراف في الترف واللهو كما في قوله تعالى (فَتَعَاطَى) أي الخمر ، وأشارت إلى عدم احترام الحدود والحرمات كما في قوله تعالى (فَعَقَرَ) كناية عن التعدي على ناقة الله بالقتل ، وأشارت إلى الجراءة في المعصية والاستعلان بها كما في قوله تعالى (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ) كناية عن فاحشة اللواط ، وأشارت على قسوة القلب ، كما في قوله (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا) كناية عن العناد والطغيان .

وقد لاحظ العلماء " أن آيات هذه السورة تنتهي كلها بفاصلة واحدة تتحد نهاياتها بحرف " **الراء** " مع التزام تحريك ما قبلها ، وذلك هو نهج فواصل السورة كلها ، وقد أشاع **هذا النسق الشاجى** نوعاً من الإحساس القوى **بجو الإنذار** ،كما لاحظوا أن **الطابع القصصى** هو السائد فى هذه السورة ، فبعد أن صور القرآن الكريم موقف أهل مكة من الدعوة الجديدة وبَيَّن ضلال مسلكهم ، في ظل حرص الرسول على هدايتهم فى وقت كانوا فيه أشد إعراضاً عنه ، الأمر الذي اقتضى **سوق عِبَر الماضين** ليكون فى ذلك تسلية للرسول ومن اتبعه وزجر لمن عارضه وصد عنه) [1]

ولما كان ذلك هو جو السورة فإنه من الملاحظ – فيها – تكرار قوله تعالى (**فكيف كان عذابي ونذر**) ، (ذلك أن **أسس التربية** –خاصة تربية الأمم– **تستدعى** تأكيد الحقائق بكل وسيلة، ومنها **التكرار** الذى لمسناه فى هذه السورة حتى لكأنه أصيل فيها وليس بمكرر" [2] .

ومن الملاحظ –كذلك – في آيات السورة تكرار لقوله تعالى (وَلَقَدْ **يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ** فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) والمقصود من التكرار إيضاح الأصول والحقائق بأن **القرآن الكريم هو معجزة هذا الدين** ، فهو (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ

1) ا.د/ عبد العظيم المطعنى http://amlsobhy.blogspot.com/2010/10/blog-post_4809.html
2) ا.د/ عبد العظيم المطعنى http://amlsobhy.blogspot.com/2010/10/blog-post_4809.html

لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(الروم 30) ، أي أن **المعجزة تكمن في الفطرة** التي دعا إليها الإسلام .

فإذا أردت أن تتعرف أكثر على معجزة الإسلام فعليك أن تستخرج من آيات القرآن ما يشير إلي هذه الفطرة ، وقد لخصت سورة القمر الطريق ، نفي الطريق الخاطئ للبحث عن معجزة هذا الدين ، ليبقى للمريد سبيل واحد للوصول إليها ، ذلك السبيل هو حكمة الله البالغة (**حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**) .

وذلك كله ضمن **كتاب الله القدري** (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) ، لتظل **معجزة الإسلام صالحة لكل مكان وأي زمان** ، في حين كانت الكتب السابقة والشرائع التي سبقت الإسلام ذات حدود مكانية وحدود زمانية ، يقول النبي (**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**) [1] ، وقد أعجز الإسلام ذلك كله فصارت المعجزة منهجا ، والمنهج معجزته.

[1]) رواه البخاري ج 1 ص 128 رقم 328

المطلب الأول

آيات الله زواجر للعباد والمعجزات نذر

قال تعالى : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ [1]إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) (القمر 1-8)

في قوله (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) إعلام وإنذار بدنوها ،أي الساعة ، فالساعة لفظ له معنيان شرعيان :-

فالمعنى الأول : هو **ساعة القيامة** أي انتهاء أجل الدنيا وفناء الكون كله ، وبداية اليوم الآخر الذي يبدأ بالبعث ثم العرض وثم الحساب ثم الجزاء ، يقول سبحانه (إِنَّ **السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا** لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)(طه 15-16) .

فالمقصود زوال الدنيا فلا يبقى عليها شيء ، فعَنْ سَهْل يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُشِيرُ بِإِصْبَعِهِ الَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ وَالْوُسْطَى وَهُوَ يَقُولُ **بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا**)[2] ، يقصد بذلك أن يقارن بين ما مضى من زمن وما بقي ، ولذلك قال النبي ﷺ "**إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ** أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ أَيْ رَبَّنَا أَعْطَيْتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا قَالَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَا قَالَ فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ" [3]قال ابن جزي قوله "إنما بقاؤكم" (إشارة إلى قرب القيامة وقلة ما بقي من الدنيا)[4]

بهذا المعنى ليس هناك تكليف شرعي غير الإيمان بالساعة دون حاجة لتقصي شيء عن وقتها ، يقول سبحانه (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ** أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي **لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا** إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) [الأعراف : 187] ، ذلك أن الساعة إحدى مفاتح الغيب الخمسة التي هي من مكنونات علم الله قال سبحانه (**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [لقمان : 34] ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : " **مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله** ، ثم تلا هذه الآية (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) " [لقمان : 34] .

---

[1]) قال ابن جبير { مهطعين } مسرعين من الإهطاع - انظر البخاري ج 4 ص 1842 – وقال مجاهد (مسرعين) ج2 ص 859 البخاري
[2]) رواه مسلم ج14 ص 190 رقم 5244
[3]) رواه البخاري ج2 ص 393 رقم 524
[4]) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 664

بيد أن الذين كفروا يستعجلونها دون اكتراث بها ، يقول سبحانه " **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ** وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ" (الحج 47) ، ولذلك فإنه سبحانه حينما يخبر باقتراب الساعة ، فذلك يعني اقترابها مقارنة بما مضى منها ، ذلك أن الزمان عند الله ليس كعند الناس ، قال تعالى " **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا** " (الأحزاب 63)

والمعنى الثاني : هو **الموت** ، أي **فناء الفرد لا الناس أجمعين** ، فمن مات قامت قيامته ، حيث ينتقل من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة ، فعَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الْأَعْرَابِ جُفَاةً يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيَسْأَلُونَهُ مَتَى السَّاعَةُ فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فَيَقُولُ **إِنْ يَعِشْ هَذَا لَا يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ** ، قَالَ هِشَامٌ **يَعْنِي مَوْتَهُمْ** [1] ، " والمراد انخرام قرنهم ، ودخولهم في عالم الآخرة ، فإن من مات فقد دخل في حكم الآخرة " [2].

وعن أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ (**تَسْأَلُونِي عَنْ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ**)[3] ، يقول العلماء " ومراد الرسول ﷺ في هذين الحديثين **ساعة المخاطبين** ، كما فسر ذلك هشام أحد رواة الحديث الأول : يعني موتهم ، فإن ساعة كل إنسان موته ، وهذا الجواب من الرسول ﷺ يعرف بجواب الحكيم ، فإنه **أرشدهم إلى الاستعداد للموت** والتأهب له ، والموت قريب قريب"[4] ، إذن **القيامة الصغرى هي الموت** ، فكل من مات فقد قامت قيامته ، وحان حينه .

والسؤال الذي يطرأ على الذهن الآن **لماذا يؤجل الله تعالى الساعة** ؟ فتكون الإجابة أن الله تعالى يؤجل الساعة حتى يُتم الآيات والنذر علي العالمين ، أي ليقيم الحجة على عباده حتى لا يحتج أحد بأنه لم تأته الآيات والنذر ، فقد جاءت الآيات والنذر بما يدحض حجج كل من يحتج بجهله علي ما هو فيه من الضلال ، يقول سبحانه (رُّسُلاً **مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (النساء 165) ، فإذا أرسل الله آية مبينة فإنه قد أنذر وأعذر ، **وإذا أنذر فقد اقترب الأجل** ، أي الساعة ، ولذلك حينما أصر كفار مكة أن يروا أية مبصرة مثلهم مثل من كان قبلهم من الأمم استجاب الله لهم فشق لرسوله ﷺ القمر ، فالإتيان بهذه الآية هو في ذاته إنذار باقتراب ساعة من يكذب بهذه الآية .

ويدخل في هذا المعنى هلاك الأمم السابقة ، حيث يأتيهم –في الدنيا– عذاب الله بغتة ، وقد ورد ذكر المعنيين المشار إليهما معطوفين في قوله تعالى "قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ **إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ** فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا " (مريم 75) ، ففي كلا الأمرين يأتيهم من العلم ما يتحققون فيه م هلاكهم حق اليقين ، قال تعالى "وَيَقُولُونَ **مَتَى هَذَا الْوَعْدُ** إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء

---

[1]) رواه البخاري ج20 ص 170 رقم 6030
2) علي رمضان أبو العز – قرب قيام الساعة ص 8
[3]) رواه مسلم ج12 ص 364 رقم 4606
4) د/ عمر الأشقر نقلا عن علي رمضان أبو العز : قرب قيام الساعة ص 13 رقم الإيداع - الترقيم الدولي7545803

اللهُ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ **يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ** * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ **عَذَابُهُ** بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ" (يونس 48-50) .

قال الإمام البقاعي (وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث ما قبل هذه الأمم وترك على ذلك أحوالهم فقال : إنه دال على قوم نوح وإبراهيم عليهما السلام ، كان لهم الليل ، فكان قوم نوح في أوله في ظلام صرف طويل لم يلح لهم شيء من تباشير الضياء ولا أمارات الصبح ، ونوح عليه السلام يخبرهم به ويأمرهم بالتهيؤ له ، فلذلك طال بلاؤه عليه السلام بهم ، وما آمن معه إلا قليل ، وأما قوم إبراهيم عليه السلام فكانوا كأنهم في أواخر الليل ، قد لاحت لهم تباشير الصباح وأومضت لهم بوارق الفلاح ، فلذلك آمن لوط عليه السلام وكذا سارة زوجته وأولاده منها ومن غيرها كلهم ، واستمر الإسلام في أولاده والنبوة حتى جاء موسى عليه السلام ، فكان وقته كما بين الصبح والظهر ، فكان قومه تارة وتارة ، تارة يحسبون أنهم في ضياء كيفما كانوا ، فيروغون يميناً وشمالاً فيكونون كمن دخل غيراناً وكهوفاً وأسراباً ثم يخرجون منها فيرجعون إلى الضياء ، فكانت غلطاتهم تارة كباراً وتارة صغاراً ، وأما قوم عيسى عليه السلام فكانوا كمن هو في الظهيرة في شدة الضياء فالغلط منه لا يكون إلا عن عمى عظيم ، فلذلك كان غلطهم أفظع الغلط وأفحشه – والله الموفق – (وإن) أي ولتعلموا أن (الفضل) أي الذي لا يحتاج إليه من هو عنده (بيد الله) أي الذي له الأمر كله (يؤتيه من يشاء) منهم أو من غيرهم نبوة كانت أو غيرها)[1].

قال تعالى (وَانشَقَّ الْقَمَرُ) (القمر 1) ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين فقال النبي ﷺ (اشهدوا) [2] ، ولا يزال العالم يشهد حتى الآن بهذه المعجزة [3].

---

[1]) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج8 ص 391

[2]) رواه البخاري ج3 ص 1330 رقم 3437

[3]) (ففي مقابلة تليفزيونية للأستاذ الدكتور زغلول النجار، سأله مقدم البرنامج عن هذه الآية؛ اقتربت الساعة وانشق القمر (: هل فيها إعجاز قرآني علمي؟ فأجاب الدكتور زغلول قائلا: هذه الآية لها معي قصة. فمنذ فترة كنت أحاضر في جامعة كارديف (Cardif) غرب بريطانيا، وكان الحضور خليطا من المسلمين وغير المسلمين، وكان هناك حوار حي للغاية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، وفي أثناء هذا الحوار، وقف شاب من المسلمين وقال: يا سيدي هل ترى في قول الحق تبارك وتعالى: (اقتربت الساعة وانشق القمر (لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟ فأجبته : لا ؛ فالإعجاز العلمي يفسره العلم، أما المعجزات فلا يستطيع العلم أن يفسرها، فالمعجزة أمر خارق للعادة فلا تستطيع السنن أن تفسرها، وانشقاق القمر معجزة حدثت لرسول الله ، تشهد له بالنبوة والرسالة، والمعجزات الحسية شهادة صدق على من رآها، ولولا ورودها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ، ما كان علينا نحن مسلمي هذا العصر أن نؤمن بها ، ولكننا نؤمن بها لورودها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ؛ ولأن الله تعالى قادر على كل شيء،قال :ثم ذكرت لهم الروايات الثابتة في انشقاق القمر.

يقول الدكتور زغلول: وبعد أن أتممت حديثي وقف شاب مسلم بريطاني عرف بنفسه وقال: أنا داود موسى بيتكوك رئيس الحزب الإسلامي البريطاني، ثم قال: يا سيدي هل تسمح لي بإضافة؟ قلت له: تفضل . قال: وأنا ابحث عن الأديان -قبل أن يسلم- أهداني أحد الطلاب المسلمين ترجمة لمعاني القرآن الكريم، فشكرته عليها وأخذتها إلى البيت، وحين فتحت هذه الترجمة كانت أول سورة اطلعت عليها سورة القمر، وقرأت:(اقتربت الساعة وانشق القمر) فقلت: هل يعقل هذا الكلام ؟! هل يمكن للقمر أن ينشق ثم يلتحم؟! وأي قوة تستطيع عمل ذلك؟! يقول الرجل: فصدقني هذه الآية عن مواصلة القراءة، وانشغلت بأمور الحياة، لكن الله تعالى يعلم مدى إخلاصي في البحث عن الحقيقة، فأجلسني ربي أمام التلفاز البريطاني ، وكان هناك حوار يدور بين معلق بريطاني وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين ، وكان هذا المذيع يعاتب هؤلاء العلماء على الإنفاق الشديد على رحلات الفضاء، في الوقت الذي تمتلئ فيه الأرض بمشكلات الجوع والفقر والمرض والتخلف، وكان يقول: لو أن هذا المال أنفق على عمران الأرض لكان أجدى وأنفع ، وجلس هؤلاء العلماء الثلاثة يدافعون عن وجهة نظرهم، ويقولون: إن هذه التقنية تطبق في نواحي كثيرة في الحياة، حيث إنها تطبق في الطب والصناعة والزراعة، فهذا المال ليس مالا مهدرا ، لكنه أعاننا على تطوير تقنيات متقدمة للغاية.. في خلال هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رجل على سطح القمر باعتبار أنها أكثر رحلات الفضاء كلفة ؛ فقد تكلفت أكثر **من مائة ألف مليون دولار**، فصرخ فيهم المذيع البريطاني وقال: أي سفه هذا؟! مائة ألف مليون دولار لكي تضعوا العلم الأمريكي على سطح القمر؟ فقالوا: لا، لم يكن الهدف وضع العلم الأمريكي فوق سطح القمر، كنا ندرس التركيب الداخلي للقمر فوجدنا حقيقة لو أنفقنا أضعاف هذا المال لإقناع الناس بها ما صدقنا أحد، فقال لهم: ما هذه الحقيقة؟ قالوا: هذا القمر انشق في يوم من الأيام ثم التحم. قال لهم: كيف عرفتم ذلك؟ قالوا: **وجدنا حزاما من الصخور المتحولة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه،** فاستشرنا علماء الأرض وعلماء الجيولوجيا، فقالوا: لا يمكن أن يكون هذا قد حدث إلا إذا كان هذا القمر قد انشق ثم التحم!! يقول الرجل المسلم «رئيس الحزب الإسلامي البريطاني»: ففزت من الكرسي الذي أجلس عليه وقلت: معجزة تحدث لمحمد ﷺ قبل ألف وأربعمائة سنة **يسخر الله تعالى الأمريكان لإنفاق أكثر من مائة ألف مليون دولار لإثباتها للمسلمين؟!** لابد أن يكون هذا الدين حقا. يقول: فعدت إلى المصحف، وتلوت سورة القمر، وكانت مدخلا لقبول الإسلام دينا).

انظر : علي بن نايف الشحود - المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ج7 ص 301

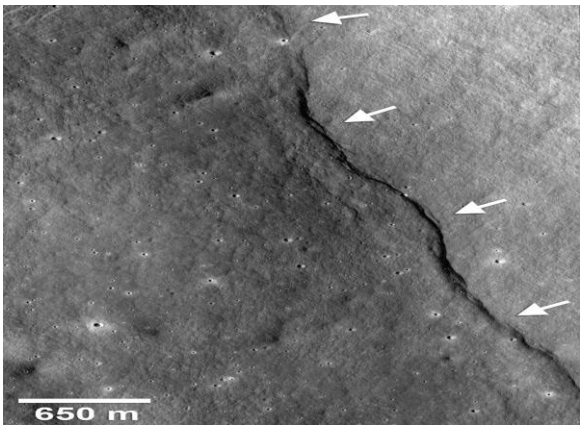

تظهر الصورة سطح القمر بعدسة المسبار"Lunar Reconnaissance Orbiter" ، الذي أطلق من الأرض في 19 يونيو 2009 ودخل في مدار القمر بعد أربعة أيام، وجاء في شرح الصورتين أنهما تُظهران "تمزقاً في قشرة القمر" ناجماً عن "برودة الجزء الداخلي منه وتقلصه خلال المرحلة الجيولوجية الحديثة"،وشرحت ناسا قائلة: "على مر العصور الجيولوجية، بردت نواة القمر وتقلصت، وتقلص قطر القمر نحو 100 متر، ونتيجة لذلك تمزقت قشرته الهشة وتشكلت ندوب على سطحه."

والعلماء حتى اليوم ورغم إثباتهم لحدوث انشقاق في القمر فإنهم مختلفون في تفسير هذه الظاهرة وأسبابها ، يقول الدكتور عبد الدايم الكحيل (وقد يقول قائل: **كيف يمكن للقمر إن ينشق إلى نصفين كل نصف في جهة**، ما الذي أحدث ذلك؟ ولماذا لم ينهار القمر؟ وسيقولون إن **هذا لو حدث فإنه يخالف قوانين الفيزياء والجاذبية والكون** ، ولذلك فإن خلاصة القول: **هناك معجزات لا يمكن تفسيرها على ضوء العلوم**، وهي معجزات اختص الله بها أنبياءه عليهم السلام، مثل معجزة العصا التي تنقلب ثعباناً على يد سيدنا موسى عليه السلام، ومثل معجزة إحياء الموتى على يد سيدنا المسيح عليه السلام، ومثل إحضار عرش ملكة سبأ خلال أجزاء من الثانية ... فهذه المعجزات لا يمكن أن نفسرها علمياً، وهي وسيلة لاختبار إيمان المؤمن) [1].

وفي قوله (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)(القمر 2) بيان لموقف قريش لما رأت معجزة شق القمر بأعينهم ، وكيف قابلوها ، إذ يتفاجأ المرء حين يعلم أنهم لم يؤمنوا بها ، فعن جبير بن مطعم قال (**انشق القمر على عهد النبي ﷺ حتى صار فرقتين على هذا الجبل ، وعلى هذا الجبل ، فقالوا سحرنا محمد** ، فقال بعضهم **لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم**) [2] ،قال تعالى (**فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**) (النمل 13) ، هكذا فعل قوم فرعون وهكذا فعلت قريش قوم النبي ﷺ ، وهكذا يفعل الماديون والمتفلسفون ، ولم يحك لنا القرآن أن ناسا آمنوا بمعجزة مادية غير سحرة فرعون ، **لما آتاهم الله تعالى من العلم الذي يفرقون به بين المعجزة الحقيقة وسحر التخيل** ، وها هم قوم النبي محمد

[1]) https://www.kaheel7.com/ar/index.php/2012-12-04-18-31-08/1125-2013-03-28-01-41-33
[2]) رواه الترمذي ج 5 ص 398 رقم 3289 وصححه الألباني انظر صحيح الترمذي ج3 ص 112 رقم 2622

ﷺ يُكَذِّبون بتلك المعجزة المادية قائلين قد سحرنا محمد ، والطريف أنهم يزعمون أنه سحرهم ، فأي أنواع السحر قد سُحِروا به ؟ **يقولون أنه سحر مستمر** ، سبحان الله يدللون على زيف افتراءهم أنه ساحر ، بقولهم أنهم سحر مستمر ، إذ لو كان سحرا كما يزعمون لما لم يبطلوا سحرهم بسحر مثله ، ولما لم يباروه في ذلك ، بل قالوا سحر مستمر ليثبتوا عجزهم عن إبطال سحره المفترى عليه به .

فهذه المعجزة لما حدثت شهدها من كان حاضرا مع النبي ﷺ ومن لم يحضر ، وبالتالي لو كان الأمر مجرد سحر لاقتصر تأثيره على الحاضرين دون الغائبين ، ومن طبيعة السحر أنه كلما استمر ضعف ، لأن الله كتب على كل شيء إذا رفعه أن يضعه ، لقوله ﷺ **(إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه)** [1] ، بيد أن الأمر قد امتد ليراها من لم يكن حاضرا مع النبي ﷺ حتى أن **ملك الهند شهد انشقاق القمر** ، ذلك أن أبا جهل لما رأى معجزة انشقاق القمر قال : هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقاً، وذلك لأن العرب يسافرون في الليل غالباً ويقيمون بالنهار فقالوا: هذا سحر مستمر ، وفي المقالة الحادية عشر من تاريخ "فرشته" أن **أهل مليبار من إقليم الهند رأوه** أيضاً ، وأسلم والي تلك الديار التي كانت من مجوس الهند بعد ما تحقق له هذا الأمر

Qiṣṣat Shakarwati Farmad /The Story of Shakarwati Farmad
India Office MS Loth 1044 (here fols 81b and 95b)

[1]) رواه البخاري ج 5 ص 2384 رقم 6136

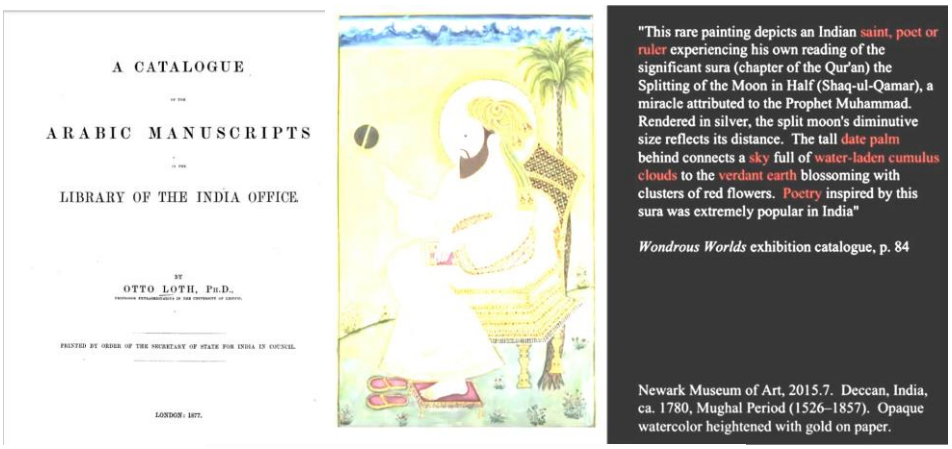

MISCELLANIES. 299

XII. Fol. 191-194. مقالة لقسطا بن لوقا فى البرهان على حساب الخطائين وهو الباب الجامع الذى يستخرج به جميع مسائل الحساب التى ليس لها جذور.

A treatise by Kusṭa b. Lūqa (d. about A.H. 311), on the *regula falsi*.

A revised edition of this treatise, by Jābir b. Ibrāhīm Ṣābi', seems to be contained in Cat. Lugd. iii. 59.

XIII. Fol. 225-229. An extract from (ʿAlī b. Aḥmad) Ibn Ḥazm Andalusī Ẓāhirī's (d. A.H. 456) work on Shāfi'ite law المحلّى, for which see H. Kh. v. 428.

This extract bears on the law of inheritance. It is accompanied by the glosses of Molla Aḥmad.

Collated on 7th Dhu'l-ḥijjah, 1140.

XIV. Fol. 234-241. A Qaṣīdah, called العروس, by Khālid b. Sarwān Fattāḥ. See Cat. Mus. Brit. 2605. The author flourished under the last Omaiyades and the first Abbasides.

The collection concludes with the خاتمة of ʿĀmilī's خلاصة الحساب (see no. 758).

This copy belonged to a grandson of the compiler, Muḥammad Riḍā b. Ghulām Muḥammad b. Aḥmad b. Sulaimān. It is dated Dhu'l-ḥijjah, 1134. On the last page is a poem, beginning:

لقد صار قلبى باللواحظ حَيْدَر (sic)

which was written by the owner on 18th Ramaḍān, 1141, at Sūrat (بالبندر المسمى بسورت).

An extract from Quṭb al-dīn Sulṭānī's نزهة القلوب, about the parentage of Ziyād b. Abu Sufyān, and a method of divination, both derived from Aḥmad b. Sulaimān, have been prefixed to the original volume by a later hand (foll. 1–3).

[Gaikwar.]

1044.

2807. Size 8 in. by 6 in.; foll. 309. From thirteen to nineteen lines in a page.

I. Fol. 1-60. Notes on select passages of the Korân, in answer to questions, which are put in *Persian*.

Imperfect both at the beginning and end. The first words are: فان قيل قوله تعالى إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[1] اصل كفر در لغت عرب چيست وكفر بچند وجه آيد الجواب اصل الكفر فى اللغة الستر والتغطية الخ.

The author is not ascertained.

II. Fol. 61–62r. and fol. 63v.–65. Two fragments on moral subjects, the latter being the end of a treatise.

III. Fol. 71–80. The beginning of a general introduction to the sciences, entitled فاتحة العلوم. Author unknown.

The preface begins: الحمد لله الذى بذكره يفتتح كل كتاب.

This treatise consists of seven chapters (باب), of which only the first and the beginning of the second are given in this MS. The former is inscribed فى فضيلة العلم, and the latter, فى تصحيح النيّة فى طلب العلم.

IV. Fol. 81-104. قصة شكروتى فرماس رضه الله عنه.

A fabulous account of the first settlement of the Muḥammadans in Malabar, under king Shakrūtī of كلنكنور (Cranganore), a contemporary of Muḥammad, who was converted to Islam by the miracle of the division of the moon.

Begins: روى محمد بن مالك عن ابيه مالك عن جده حبيب بن مالك رضوان الله عليهم اجمعين الخ.

V. Fol. 111–151. A history of the Muḥammadans of Malabar, entitled تحفة المجاهدين, by Shaikh Zain al-dīn (tenth century). Complete. See no. 714.

Begins: الحمد لله الذى اظهر دين الاسلام على كل الاديان.

VI. Fol. 152–173. A poetical account of the struggles of the Zamorin (السامرى) of Calicut with the Portuguese under Vasco de Gama, A.H. 903. In about five hundred *Rajaz* verses. The author, Muḥammad b. ʿAbd al-ʿAzīz Kālikūṭī Shāfi'ī, was contemporary with the events narrated. He entitled his poem الفتح المبين للسامرى الذى يحبّ المسلمين.

[1] Here follows in the MS. the word قيل.

[1] Sū. 2, 5.

نقل الحافظ المري عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناءً قديماً مكتوباً عليه"**بني ليلة انشق القمر**" [1].

تشير المصادر التاريخية الإسلامية إلى أن البناء هو **قصر أو هيكل في منطقة مليبار (Malabar)** بجنوب غرب الهند .بُني القصر في نفس الليلة التي وقعت فيها معجزة انشقاق القمر، حيث كان حاكم المنطقة آنذاك ملك مليبار (المعروف في بعض الروايات باسم "شاكرواني فرماس" أو "السامري") شاهداً على هذه الظاهرة وسجل تاريخها حيث كان يتفقد بناء قصره في تلك الليلة، فرأى القمر ينشق نصفين ، ودوّن الملك هذا الحدث الباهر في السجلات الرسمية لمملكته، وتم نقش عبارة على جدران القصر تفيد بأنه بُني في ليلة انشقاق القمر.

1) علي بن نايف الشحود : إقامة الحجة على العالمين بنبوة خاتم النبيين ج3 ص 291

فلما علمت قريش أن غيرهم من العرب المسافرين شهدوا بهذه المعجزة وأقروا بوقوعها لأهل مكة ، قالوا هذا سحر مستمر ، أي ليس له علاج عندهم ، فهم يبطلون قولهم بأنه ساحر لأن السحر يستحيل أن يستمر ، ولذلك زعموا أنه جاء بسحر ليس له مثيل ولا دافع لهذا السحر لأنه سحر مستمر ، والحقيقة أنه لا سحر مستمر في الوجود ، وأن ما يسحر الناس من معجزات حقيقية وآيات كونية ليس إلا واقع مادي ملموس ، ولذلك (قال بعضهم لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم) [1]، ولا يزال العالم يشهد بتلك المعجزة

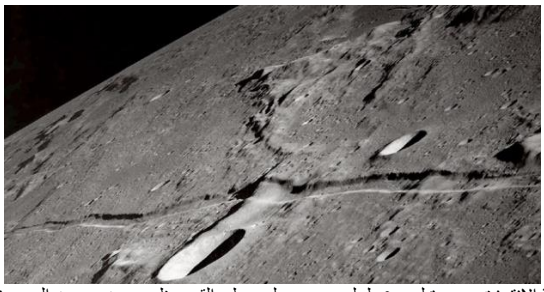

في موقع وكالة ناسا الفضائية الأمريكية على شبكة الإنترنت صورة لصدع طولي رهيب على سطح القمر يظهر بوضوح من الصورة يمتد لمئات الكيلومترات، عبارة عن حزام من الصخور المتحولة، وكاتب المقال يتساءل: ما الذي يمكن أن يحدث شقًّا بهذا الطول في القمر؟ [2].

What could cause a long indentation on the Moon ?

أما المعجزة الحقيقية التي جاء بها محمد ﷺ فهي البيان ، يقول النبي ﷺ **(إن من البيان لسحرًا)** [3] ، فهذا هو السحر الحقيقي الذي جاء به محمد ﷺ ، وهو القرآن الكريم الذي سحر القلوب والعقول ، فجعل قريش تسلم لله تعالى بعد أن كانت على الكفر وصدت عن سبيله .

وفي قوله تعالى (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ)(القمر 3) كشفت الآية الأسباب الحقيقية التي حملتهم على تكذيب النبي ﷺ ، بأنهم أرادوا تزييف الواقع بطمس المعجزة المادية حتى لا يؤمن بها أحد ، لماذا ؟ لأنهم اتبعوا أهواءهم ، لا يريدون أن تقام عليهم الحجج والآيات والمعجزات حتى تظل أمور سيادتهم مستقرة على ما هي عليه ،

قوله (..وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ) (القمر 3) أي: كل أمر لابد له من قرار ، فلابد أن ينكشف الكذب من الصدق ، والكفر من الإيمان [4]، أي : لكل أمر حقيقته ، قال الحسن بن الفضل : يعني يستقر قرار تكذيبهم وقرار تصديق المؤمنين حتى يعرفوا

---

[1]) رواه الترمذي ج 5 ص 398 رقم 3289 وصححه الألباني انظر صحيح الترمذي ج3 ص 112 رقم 2622

[2]) تفسير الطبري ج22 ص 572

Explanation: What could cause a long indentation on the Moon? First discovered over 200 years ago with a small telescope, rilles (rhymes with pills) appear all over the Moon. Three types of rilles are now recognized: sinuous rilles, which have many meandering curves, arcuate rilles which form sweeping arcs, and straight rilles, like Ariadaeus Rille pictured above. Long rilles such as Ariadaeus Rille extend for hundreds of kilometers. Sinuous rilles are now thought to be remnants of ancient lava flows, but the origins of arcuate and linear rilles are still a topic of research. The above linear rille was photographed by the Apollo 10 crew in 1969 during their historic approach to only 14-kilometers above the lunar surface. Two months later, Apollo 11, incorporating much knowledge gained from Apollo 10, landed on the Moon.

والكيفية التي طرح بها السؤال تبين بجلاء حيرة العلماء في تفسير تكون هذا الشق، وهو ما ينم عن حدث عظيم تعرض له القمر ترك هذا الأثر المحيّر، ولو كان سببه زلزالا عاديًا أو بركانًا لما استغلق على العلماء فهمه كل هذه المدة إذ أنه اكتشف منذ أكثر من 200 عام كما يذكر موقع وكالة ناسا.

انظر : موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ ج6 ص58

[3]) رواه البخاري ج 5 ص 1976 رقم 4851

[4])انظر في هذا المعنى : معاني القرآن للفراء ج5 ص56 ، الشوكاني فتح القدير ج7 ص 87 ، الوجيز للواحدي ج1 ص 954 ، النيسابوري : الكشف والبيان ج9ص162

حقيقته في الثواب والعقاب[1] .قال قتادة : وكل أمر مستقر : أي بأهل الخير الخير ، وبأهل الشر الشر [2]، وقال مقاتل : لكل امرئ منتهى [3].

والمعنى المراد سوقه هو أن تكذيبهم للآيات وإن انطلى على كثير من الناس لأجل أن تستقر أوضاعهم الجاهلية ، فإنه لابد من أن يأتي يوم تتكشف فيه الحقائق ويحصل عندئذ الاستقرار الحق القائم على العدل بين الناس ، فهم يريدون أن يطمسوا الحقيقة اليوم لأجل أن يظل السادة سادة ، والعبيد عبيدا ، ولا يقف السادة والعبيد سواسية في صف واحد أثناء الصلاة ، ولا يطوفون معا حول الكعبة جنبا إلى جنب ، بل ويظل الظلم هو الحاكم والمسيطر على مقاليد الأمور وتظل دعوات الجاهلية هي المهيمنة ولا تجد للحق غير صوت خافت ولا تجد له أهلا إلا في الخفاء .

هذا الذي يريده أعداء الله تعالى ، ولكن لابد من أن يأتي يوم يتحقق فيه الاستقرار الحق ، فالاستقرار الحقيقي لا يتحقق إلا بالثورة التي يدعو إليها الإسلام لقلب أوضاعهم المستقرة على الظلم والطغيان إلى استقرار حقيقي يقوم على العدل والمساواة ، فهي ثورة على النفس فلا تعبد إلا الله ، ثورة اجتماعية لا تفرق بين السادة والعبيد ، وتجعل المرء مسئولا عمن يعول وتتسع مسئوليته بالضمان والإعالة بحسب مقدرته وطاقته ،ثورة اقتصادية تمنع الاحتكار لأدوات الإنتاج ، والسلع المنتجة ، وتجعل الأجر مقابل العمل ، ثورة فكرية تحرر الإنسان من كل قيد يعرقل فكره وتصوره ...الخ ، لكنهم لا يريدون ثورة تحدث استقرارا حقيقيا ، وإنما يريدون استقرارا لأوضاعهم البائسة وحياتهم العفنة حيث لا تستقبل أعينهم نور الإسلام ، يقول سبحانه (**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**) (الصافات69-70) ، فهم يهرعون إلى ما هم فيه من عفن ، ولا يهرعون إلى ثورة الإسلام على كل صور الطغيان .

وفي قوله (وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)(القمر 4) تأكيد على عدم خلو الحكايات والقصص والمواعظ من الفوائد التربوية التي ينزجر بها العباد عن معصية الله ، بما يقيم حجة الله عليهم ، لما في قصص الأولين من عبرة ، أي في مصارعهم وإهلاكهم لما قابلوا الآيات والمعجزات بالتكذيب والافتراء والتشويه زاجر ورادع لهم عن أن يكرروا فعلتهم ، فالقرآن يحذرهم أن يطلبوا الآيات المادية فيكون مصيرهم مثل مصير أسلافهم لما طلبوها ثم كذبوا بها بعد أن جاءتهم فأهلكهم الله ولم يفلتهم ، قال تعالى (**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**) (آل عمران 137) ، قال رسول الله ﷺ (**لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**)[4] ، لكن هل ازدجر القوم لما سمعوا تلك القصص ، وهل اعتبروا وانتهوا عن سؤال الآيات ؟ فعَنْ جَابِرٍ قَالَ **لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ**) [5] ، يعني فيصيبكم مثل ما أصاب قوم صالح ؟

---

[1]) الكشف والبيان ج9 ص 162
[2])
[3]) تفسير الثعلبي ج1 ص 2181 تفسير البغوي ج7 ص 426
[4]) رواه أحمد ج37 ص 239 رقم 17573
[5]) رواه أحمد ج28 ص 193 رقم 13644 والحاكم في المستدرك على الصحيحين ج2 ص 351 رقم 3248

وفي قوله تعالى (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) (القمر 5) قال القرطبي (يعني القرآن)[1] ،وفيه التفات عن الآيات المادية التي تحتوي على معجزات مؤقتة إلى آيات القرآن التي تحتوي على حكم بالغة ، ففيه المنهج للبشرية ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)[2] .

إذن معجزة الإسلام هو القرآن الكريم ، وهذا هو التجديد الذي جاء به دين الإسلام فعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ **(إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)**[3] ، فإذا كانت تلك إذن هي معجزته ، فلابد وأن يتمسك المسلمون بإظهارها للناس ، حيث لا حدود لبلاغة حِكم القرآن ، فالقرآن منهج صالح للتطبيق في أي زمان ومكان ، وهو أصلح المناهج التطبيقية مهما اختلفت ألسنة البشر وسياساتهم وعاداتهم وأهواءهم ، فالله تعالى يعظنا بما فيه حكمة ، ويرسل إلينا آياته ويبلغها لنا على أيدي رسله ، إلا أنهم لا يعتبرون لها ولا يتعظون بها ، ولذلك تسترسل الآيات في تكرار قوله تعالى " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ " .

وفي قوله تعالى (..فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) (القمر 5) إظهار لمدى عنادهم لرسولهم ، وتوليهم عنه ، ونظير ذلك قوله تعالى "**وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**" (يونس 101)، أي أنهم لم تنفعهم النذر والآيات التي طلبوا رؤيتها لكونهم غير مؤمنين ، ، ولذلك اشتهر القول (إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ)[4] ولذلك لم تؤثر فيهم النذر رغم أنها بالغة في العظمة والإبهار .

في حين – وبمفهوم المخالفة –هذه الآيات والنذر تنفع المتقين قال تعالى "**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ** " (الأنبياء 49) ، وقال سبحانه " يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا **وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ** أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ "(الشورى 17-18) .

ولذلك لم يسترسل المولى سبحانه في إرسال الآيات المادية المعجزة المؤيدة للنبي محمد ﷺ لأنه رسول للعالمين ، والآيات لها حدودها المكانية وحدودها الزمانية ، فمن اليسير أن يكذب بها من لم يرها أو من لم يسمع عنها ، وحتى وإن سمع عنها ، فمن اليسير أن يقول إنها أساطير الأولين ، وحتى وإن رآها فكذلك يسهل عليه أن يدعي أنها سحر مستمر ، يقول سبحانه **(وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ)**(الإسراء 59) ، فلا يمتنع أن يكذب بها الآخرون

والله تعالى حين يأت بمعجزة فقد أنذر وأعذر ، ورغم ذلك فلم تغن النذر ، فلا يلقون لها بالا ، سواء أكان معجزة مادية محسوسة ذات حدود مكانية وزمانية ، أو معجزة منهجية تتضمن الحكمة التي ليس لها حدود المكان أو الزمان ، إلا إذا شرح الله قلوبهم لاستقبالها .

---

[1]) تفسير القرطبي ج17 ص 128
[2]) رواه مسلم ج4 ص 252 رقم 1353
3) رواه أبو داود ج11 ص 362 رقم 3740 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات 2 ص 98 رقم 599
[4]) رواه الترمذي ج10 ص 155 رقم 2837 وصححه د ماهر الفحل : رياض الصالحين محققا ص496 وضعفه الألباني والشيخ مصطفى العدوي ، والشيخ أبو اسحق الحويني مرفوعا
https://www.youtube.com/watch?v=EnnzYy0Vpow

وفي قوله (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ) (القمر 6) أي انتظر حتى يأتي أجلهم وترى مصارعهم قبل يوم القيامة ، ونظير ذلك قوله تعالى (**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ**) (الذاريات 54)، فعن مجاهد قال (خرج علينا علي .. فقال لما نزلت (فتول عنهم فما أنت بملوم) **لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة** إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنا حين نزلت)[1].

فهذا الخطاب للنبي ﷺ تحييدا لموقفه إزاء عناد الكافرين معه ، وكذلك أصحابه والدعاة إلى الله تعالى من بعدهم ، فإذا ما وجد الدعاة ذلك الصد عن سبيل الله والعناد من المكذبين والمشككين ، فليس عليهم أن يجهدوا أنفسهم فوق وسعهم مسترسلين في تكرار المحاولات البائسة لتأييد الإسلام بالآيات والنذر ، وهم متحسرين أن قومهم يعاندون معهم ، فغاية المسلم البلاغ ، وليس عليه بعد غير الانتظار إلى يوم القيام ، فالله أعلم بالأرض التي تقبل البذرة وتلك التي لا نبت كلأ ولا تمسك ماءً ؟

قوله (..يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ) (القمر 6) المقصود بالداعي (إسرافيل) الموكل بالنفخ في الصور إيذان بيوم القيامة ، حيث يصعق من في السماوات ومن في الأرض ، والمقصود أن موقف النبي سوف يظل على الحياد من الكافرين حتى يأتي يوم القيامة ، وليس علي النبي ﷺ أن يسيطر علي الكافرين والمعاندين بالسيف ، وليس عليه أن يجاهدهم بالقتل طالما أنهم لم يظهروا عداوته ويبسطوا إليه أيديهم وألسنتهم بالإيذاء ، وبمعنى أخر أن يقف علي الحياد منهم متى ظلت المسألة بينه وبينهم مجرد اختلافات لوجهات النظر ، فهذا هو الشرط ، ولم يصحبها تطاول على أحد أو إيذاء لآحاد من الناس ، وسيظل هذا **موقف الإسلام منهم على الحياد التام** – ما لم تتغير شروطه– **مهما طال الزمان حتى يأتي يوم الصيحة**، فما أصبر المسلمين على المخالفين لهم .

قوله (..إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ) (القمر 6) أي (شيء فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله) [2] (وهو القيامة ، وما يسبقه من عذاب كالموت والاستئصا) (ويكنى بالنكر عنه لأنه في الغالب منكر غير معهود ، وجوز أن يكون من الإنكار ضد الإقرار)[3] ، قال ابن عاشور: (وأبهم "شيء نكر" للتهويل) ، قال الرازي سمي نكر (**لأنهم أنكروه**)[4] أي يوم يدعو الداعي إلى الشيء الذي أنكروه يخرجون .

إذن قد يقصد به **الموت، فمن مات قامت قيامته** ، أو عذاب الاستئصال في الدنيا قال تعالى (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا **وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا**) (الطلاق 8) ، أو يوم القيامة ،كل ذلك صحيح .

وفي قوله (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ* مُّهْطِعِينَ [5]إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا –يَوْمٌ عَسِرٌ) (القمر 7-8) تركيز على صورة من مشاهد يوم القيامة ، وتصوير لهيئة المكذبين ، (خاشعة أبصارهم) أي ذليلة ،

1) رواه البيهقي ج6 ص 119 رقم 11430 وقد استشهد به الألباني لتقوية حديث آخر إرواء الغليل : ج5 ص 313
2) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل - للعلامة البيضاوي الآية 6 من سورة القمر
3) تفسير الألوسي ج20 ص 57
4) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 4267
5) قال ابن جبير { مهطعين } مسرعين من الإهطاع - انظر البخاري ج 4 ص 1842 – وقال مجاهد (مسرعين) ج2 ص 859 البخاري

(الأَجْدَاثِ) جمع جدث ، وهي القبور، قال الطبري (وإنما وصفهم بخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم ، لأن- خشوع الأبصار كناية عن الذل ، يستبين بخشوع البصر دون سائر الجسده) [1].

فترى أبصار هؤلاء المكذبين -يوم القيامة- منكسرة إلى الأرض في صورة أقرب للخشوع ، وليس ذلك هو الخشوع الذي يثابون عليه ، فقد انتهى وقت العمل والجزاء يوم الحساب ، وهم علي هذه الهيئة من الذل والانكسار يخرجون من قبورهم في صورة أشبه بالجراد المنتشر من كثرتهم وسرعة انتشارهم ، **يقصدون وجهة واحدة** ولا يحيدون عنها وهي أرض المحشر .

وفي موضع آخر وصفهم كالفراش ، كما في قوله تعالى: **(يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث)** [القارعة : 4] ، قال المفسرون (فهم في أول أمرِهم يكونون كالفَراش حين يموجون فزِعين لا يهتدون أين يتوجهون ، ثم يكونون كالجراد المنتشِر عندما يتوجهون للحشْر ، في ذلك اليوم يخرجون مسرعين الى الداعي ، ينظرون إليه في ذلٍّ وخضوع ، لما يرون من الهول)[2].

ووصفهم بأنهم مهطعين أي مسرعين ولا يتأخرون عنها ولا يتلكئون ، وهم يستجيبون للداعي الذي يسوقهم إلى أرض المحشر يوم القيامة ، يبين سرعة استجابتهم لله لما دعاه في الآخرة ، وقد أمرهم الله تعالى في الدنيا بأن يجيبوا لنداء الصلاة فلم يهطعوا ولم يخشعوا ولم يجيبوا ، وأمرهم بإجابة نداء الجهاد سواء بالمال أو النفس – وهو أهون من ذلك – فلم يهتدوا ولم يهطعوا ولم يخشعوا ، واليوم يخشعون ويهطعون لإجابة الداعي ، وقد دعاهم الله تعالى للإيمان من قبل فلم يستجيبوا له ، **(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ)** (الشورى 47) .

واليوم وبعد أن صاروا إلى ما صاروا إليه وجُمِعوا إلى ما لا ينفضون عنه ماذا يمكنهم أن يقولوا ؟ يقول سبحانه (يَقُولُ الْكَافِرُونَ **هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)** أي أنه يوم عسير في كل شيء ليس فيه تيسير ، جاء اليوم الذي استجاب فيه الله لدعوة نبيه ﷺ لما قال (اللهم من ولى من أمر أمتي شيئا **فشق عليهم فاشقق عليه)** [3] ،شقوا على أنفسهم فلم يهتدوا للإيمان ، وشقوا على من حولهم حين كذبوا بالآيات البينات ،وأطلقوا الافتراءات وصدوهم عن الله ، فأين يأتي بعد ذلك التيسير وقد جلبوا لأنفسهم كل أسباب التعسير ؟!

ويكون التعسير أو التيسير على الناس بحسب أعمالهم ، ويقولﷺ (تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ،فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاما ،وأشار بيده إلى فيه ﷺ)[4].

1) تفسير الطبري ج22 ص 573 مع بعض التصرف
2) تيسير التفسير للقطان ج3 ص 286
3) رواه مسلم ج3 ص 1458 رقم 1828
4) رواه مسلم ج4 ص 2196 رقم 2864

ومن جهة أخرى نجد مغالاة أهل الكتاب في دينهم وإلزامهم أنفسهم ما لم يلزمهم الله به ، واسرافهم في التمسك بالماديات والمضلات ، واختراعهم دين من عندهم وشددوا به على أنفسهم رهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم ، فشدد الله عليهم ، يقول سبحانه (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ) (المائدة 77) ، فهل بعد ذلك ييسر الله عليهم وقد جلبوا لأنفسهم التعسير بإتباعهم أهواءهم وأهواء أقوام ضلوهم ؟!يقول النبي ﷺ (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم)[1].

[1]) رواه البخاري ج5 ص 2393 رقم 6167

المطلب الثاني

آية الله في قوم نوح

قال تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ [1]، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ ، وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ [2]، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ، وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) (القمر 9-17)

ذكرت قصة نوح في القرآن على وجه الإجمال مختصرة بصدد الحديث عن القوم المكذبين أو تأييد الله للأنبياء ، كما في سورة (النجم (50-52)، ص(12) ، الذاريات (46)، الحاقة (11-12) ، الأنبياء (76-77) ، وودت القصة مفصلة في تسع سور (القمر ،الأعراف ، الشعراء ، يونس ، هود ، نوح ، المؤمنون ، العنكبوت) : -

وعندما تستعرض الآيات التي ذكرت قصة نبي الله نوح في القرآن لن تجد تشابها بينها ، بل تأتي القصة كل مرة بجديد ، وإليك ذكر ذلك

- أولاً: سورة القمر: الآيات من (9-17): جاء في سياق تكذيب أهل مكة للنبي ، كلما رأوا معجزة للرسول كذبوا وقالوا هذا سحر مستمر ، وبينت أن الذي منعهم من الإيمان ليس عدم قوة حجة المعجزات بل كان اتباعهم للهوى ، وبينت كذلك كيف أنهم اتهموا محمدا بالسحر والجنون ، وهو ذات اتهام قوم نوح لنبيهم ، وفي ذلك تسلية للنبي محمد ﷺ لكي لا يحزن ، ويعلم أن من سبقه من الرسل صبروا على مثل ذلك ، ثم اختمت ببيان مصير قوم نوح (المؤمنين والكافرين).. تهديدا واضح لكفار مكة.
- ثانياً: الأعراف الآيات من (59-64): جاءت في سياق استغراب المشركين في أن الله بعث بشراً نبياً، فنعت عليهم استغرابهم ، مبينة الحكمة من ذلك ، بأسلوب التبكيت ... والجديد في السياق ذكر جزء من الحديث الذي دار بين سيدنا نوح وقومه وتحديه لهم وتمسكه بعقيدته.
- ثالثاً: الشعراء الآيات من (105-122): حيث تميز أسلوب مخاطبة نوح لقومه في هذه السورة بأن غلب عليه الحس العاطفي ، والسورة تتناول الحديث عن الشعراء الذين يحركون مشاعر الناس ويلامسون عواطفهم وشجونهم .
- رابعاً: سورة يونس الآيات من (71-73): سلطت الضوء على الأبعاد النفسية للنبي ، من حيث ثقة سيدنا نوح بخالقه وحافظه ، ثم تحديه لقومه بأنهم لن يستطيعوا أن يمسوه بسوء إلا بإذن الله .. وهذا لم يرد في السور الأخرى.
- خامساً: سورة هود الآيات من (25-48): تختلف عن السور الأخرى بكونها أكثر السور التي فصلت الحديث في شبهات قومه ورده عليهم في حوار عقلي منطقي، وكذلك حواره مع ابنه.

---

[1]) (دسر) قيل جمع دسار وهو المسمار وقيل الدسر صدر السفينة - انظر البخاري ج 4 ص 1842 -

2) قال الفراء ومُدَّكر في الأصل مُذْتَكِر على مُفْتَعِل فصيرت الذال وتاء الافتعال دالاً مشدّدة – لسان العرب ج4ص 290 –
عن عبد الله قال قرأت على النبي ﷺ{ فهل من مذكر } ، فقال النبي ﷺ " فهل من مدكر" رواه البخاري ج4ص1845 رقم 4593 ، والحديث يدل على تصحيح القراءة لعبد الله من النبي ﷺ ، وأنه لم يقره على قراءتها مذكر ، فكان تصحيحه له أن تقرأ (مدكر) .لكن الرواية تذكر من باب التفسير للفظ الوارد بالمصحف .

- سادساً: سورة الصافات الآيات من (75-82): لم تتعرض هذه القصة للحديث عن إرسال سيدنا نوح أو حواره مع قومه.. بل كل ما فيها بيان نعم الله على نوح وما أكرمه به من منن.. أجملها بقوله: " سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(79) " .
- سابعاً: سورة نوح (كلها): والجديد فيها ذكر أساليب سيدنا نوح في الدعوة بالتفصيل (وهي عشر أساليب) والتفصيل الدقيق لما دعاهم إليه: العبادة، التقوى، وجوب طاعتهم له. والجديد فيها أيضاً أسماء أصنامهم..
- ثامناً: سورة المؤمنون الآيات من (23-30): تحدثت عن كيفية مخاطبة قومه بعضهم بعضاً، وسنة الله الكونية الثابتة في استهزاء المتبوعين بالأتباع، وطاعة الأتباع العمياء للمستكبرين .
- تاسعاً: سورة العنكبوت الآيات من (14-15): وهي آخر ما نزل من السور التي تحدثت عن قصته بشيء من التفصيل، " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ(15) ". وفيها تلخيص بديع لقصته ،ورغم كونها تلخيصاً للقصة، إلا أنها حملت جديداً وهي: مدة دعوته وكيف صبر على قومه طيلة هذه المدة[1].

ففي قوله (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)(9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ) استشهاد قرآني بما حصل في أغوار التاريخ ، إذ يحكي القرآن سبب إهلام قوم نوح عليه السلام ، ليكون ذلك عبرة لقريش حتى يتجنبوا ما وقع منهم ، فيسلط القرآن الضوء على مقطع هام من حياة هذا النبي ، وهو في موقف استضعاف واستشعار غلبة قومه له ، لكن هذا الشغول لم يتغلب عليه ، بل استنصر بربه ، وقد غابت عنه الأسباب ، فلم يبق غير مسببها ، فيستظهر القرآن أهمية الدعاء كأحد أسباب النصر على الأعداء ، قال تَعَالَى (**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**) [النمل : 62] ، وفي ذلك إيماءة للنبي محمد ﷺ أن يستنصر بربه ، وإيماءة تتضمن تهديدا لقريش أن آمنوا بمحمد واستجيبوا لله ورسوله قبل أن يهلككم الله بعذاب .

وكلنا يعلم أن نبي الله نوح عليه السلام ظل يجاهد قومه ويدعوهم إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاما ، ورغم طول هذه الفترة لم ينل منهم غير التكذيب واتهامه بالجنون ، بل إنهم ظلوا يزجرونه وينهونه عن دعوته مهددين إياه بالقتل ، (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) (الشعراء 116) ، لكن القلب المتعلق بالله تعالى لا يعرف اليأس ، فما كان منه عليه السلام – وبعد أن ساءت العلاقة بينه وبينهم لأقصى درجات الاستضعاف ، ولم ينصره منهم إلا قليل – إلا أن استنصر عليهم بربه .

قوله (..فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ) (10) هذا من أقوى صيغ الدعاء ، فالمغلوب هو من انقطعت عنه الأسباب الشرعية ، وأحس بالظلم ، وتكالب أعدائه عليه إما استهزاء أو سخرية أو تهديدا أو غير ذلك من أساليب القهر المادي والمعنوي ، قلما يفلت من يمثل الحق من هذا الابتلاء ، حتى خارت قواه عن مدافعة الباطل ، ولم يملك شيئا يدخره للجهاد

1) أهل التفسير مع شيء من التدخل - الموقع الالكتروني : https://vb.tafsir.net/tafsir35976/#.WzBPmPlTJxA .

في سبيل الله سواء بالكلمة أو بالسيف ، ولم يبق غير أن ينصره الله بغير أسباب الدنيا المعروفة ، ولذلك كانت الإجابة سريعة من الله تعالى بإغراق قومه بالطوفان ونجاته والمؤمنين .

وهنا تأتي أهمية ذكر العلاقة بين العبد وربه ، وفهم أن التأييد والنصر يأتي من الله ، قال سبحانه (**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ)(الزمر36 37) فهو وإن كان قد يئس من قومه وكان من يأسه أن دعا عليهم بالهلكة ، فإنه لم ييأس من روح الله ، حيث سأل الله تعالى أن يستبدل غيرهم بهم ، (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (نوح26 27).

يقول الشيخ مصطفى العدوي (هذه الدعوة خرجت بإخلاص حال شدة البلاء وعظم الألم ، ودلت على نوع من العبودية له ، فاستظهرت الخضوع والإخبات والتضرع وحسن اللجوء ، بكلمتين "مغلوب" ، "فانتصر" ، وهاتان الكلمات في غاية البلاغة ، وهكذا تستخرج الابتلاءات أحسن ما عند العبد من كلمات تدل على مكنونات صدره) [1]

قال الأصفهاني (وإنما قال فانتصر ولم يقل انصر تنبيها **أن ما يلحقني يلحقك** من حيث إني جئتهم بأمرك، فإذا نصرتني فقد انتصرت لنفسك)[2] ، قال رسول الله ﷺ (**اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ**)[3]، يقول عمر بادحدح (**في أيدينا سلاح فتاك لابد ألا نغفل عنه وهو الدعاء**) [4]، **فالدعاء يدل على تفويض الأمر لله** والتوكل عليه بعد الفراغ من الأسباب وانقطاعها عن العبد ، قال ابن القيم (فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلا له ، قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله ، للعلم بكفايته نهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره ، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له ، أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه ، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته ، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه ، وأخبره أنه سبحانه الملي بالوكالة الوفي بالكفالة ...فالعاجز من رمي هذا كله وراء ظهره وقعد كسلان طالبا للراحة مؤثرا للدعة .. فعطل الأسباب اعتمادا على التوكل ..، بل لن تخلو الأرض ممن التمسك الأسباب بجوارحه ، ولم يتعلق بها قلبه ، فهو ذاك المتوكل الذي صبر نفسه لله وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به ، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ووثق به وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده ، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله فلم يتسع قلبه للأمرين فأعرض أحدهما إلى الآخر ولا ريب ان هذا أكمل حالا ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه وأكمل منهما من جمع الأمرين وهي حال الرسل والصحابة)[5].

---

[1]) تفسير الشيخ مصطفى العدوي
[2]) غريب القرآن للأصفهاني ج1 ص 465
[3]) رواه مسلم ج1 ص 111 رقم 27
[4]) دروس الشيخ علي بن عمر بادحدح درس 155 ص 6 الشبكة الإسلامية ، مع بعض التصرف
[5]) الروح ج1 ص 255

وفي قوله (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)(القمر 10-11) بيان لسرعة استجابة الله له ، وإنزال عقوبته بالقوم الفاسقين ، فقد أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب

وقد وصفت الآيات طريقة إهلاكهم بأسلوب الاستعارة التمثيلية التي هي أروع طرق الاستعارة ، فشبه السماء بأبواب السد التي تخزن خلفها ماء كالبحر ، ففتُحت أبوابه وانهمر منه الماء انهمارا ، فدمر من شدته الأخضر واليابس ، وليس ذلك فحسب ، بل اجتمع مع ماء السماء علي ماء الأرض بعدما تفجرت عيون الأرض تفجرا ، وفاض الماء وغُمرت اليابسة فهلك كل شيء ، ولم يقدر أحد على النجاة منه ، حيث الدوامات الناتجة عن إلتقاء مائين ، وسرعة التيارات المائية التي جرفت كل شيء .

وفي قوله (..عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)(11) تعليل لسبب إغراقهم ، فذلك راجع لذنوبهم ، وتلك سنة الله القدرية أن يهلك أمثال هؤلاء المكذبين بالآيات ، وهي سنة كونية لا تتبدل ولا تتغير ، قال قتادة : (قضى عليهم في أم الكتاب إذا كفروا أن يغرقوا)[1] .

وعذاب الإهلاك العام قد يكون بذنوبهم ويتقدمها الكفر ، وقد يكون لأجل متابعة الكفار ولو ظاهريا ، فنحن حينما نتعامل مع سنن الله الكونية نؤمن بقضائه وقدره ونسلم له ، وليس بأيدينا غير أن نأخذ بالأسباب الشرعية للنجاة من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة ، حيث نعمل على أن نكون في صف الحق الذي يدمغ الله به الباطل ، ولا يجوز أن نقف في صف الباطل ولو ظاهريا ، أما من كان مكرها فله أن يأخذ بالرخصة فيُسِر إسلامه ، وحينئذ قد لا ينجو من عذاب الدنيا وإن كان ناجيا من عذاب الآخرة ، وقد يأخذ بالعزيمة فينجو في الدارين .

يقول النبي ﷺ (يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض **يخسف بأولهم وآخرهم**) ، قالت قلت يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم **وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم** ؟ قال (يخسف بأولهم وآخرهم ثم **يبعثون على نياتهم**) ، قال ابن حجر في الشرح : (والمعنى أهل أسواقهم أو السوقة منهم وقوله ومن ليس منهم أي من رافقهم ولم يقصد موافقتهم ، والمراد بالأسواق أهلها أي يخسف بالمقاتلة منهم ومن ليس من أهل القتال كالباعة وفي رواية مسلم فقلنا أن الطريق يجمع الناس قال

[1]) ذكره الشوكاني في الفتح القدير – وذكره الصابوني عنه في صفوة التفاسير .

نعم فيهم المستبصر أي المستبين لذلك القاصد للمقاتلة والمجبور بالجيم والموحدة أي المكره وبن السبيل أي سالك الطريق معهم وليس منهم) [1].

قوله (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ [2]، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) (القمر13 14) وصف لطريقة إنجاء الله تعالى لنبيه نوح والطائفة التي آمنت معه من الغرق والإهلاك ، لأنها أخذت بالعزيمة وتميزت عن الباطل ، وقد تبين أن نبي الله نوح أخذ بالأسباب الشرعية للنجاة ، فظل يعمل لهذا اليوم ويبني سفينته من ألواح ودسر حتى أتم صنعها .

قوله (...تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) (القمر13 14) قال تعالى (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) أي بحفظنا ورعايتنا [3]، قال ابن كثير أي: (بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا)[4] ، وقال تعالى (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا) [هود : 37] فهو لا يفقه صناعة السفن ولكن الله ألهمه ، والأسباب التي ارتكن إليها نبي الله نوح ليست بقوية ، فالسفينة التي صنعها لا تقدر أن تقف أمام هذا الطوفان العارم ، وتلك الدوامات العاتية ، بل والأبواب المندفعة من السماء والماء المتفجر من الأرض ، فلا يمكن لأقوى سفينة في العالم أن تقدر على ذلك إلا بإذن الله ، وقد أذن الله لسفينة نوح دون غيرها أن تقدر على ذلك ، وهكذا حفظ الله تعالى الجماعة المؤمنة من الهلاك والإيذاء ، ونجاهم من الكافرين، ونجاهم من عذابه العاجل الذي نزل بهم.

يقول الشيخ علي بن نايف الشحود (لم الله يكلف أصحاب الدعوة معرفة الطريقة التي سينزل بها النصر الله ، ولكن حسبهم أن يوقنوا بنصرِ الله لهم ، فلهُ سُبحانه جنود السموات والأرض، وهو على كل شيءٍ قدير، ولا يعجزه شيءٌ ، وهذا يقودنا إلى – التماس الأسباب المؤدية إلى النصر ،وإيكال الأمور كلها لله –، والتوكل على الله عز وجل والاستعانة به وحده)[5]، فالتماس أسباب النصر هو العبادة ، وتعلق القلب بالله لتحقق النصر هو الاستعانة .

وفي قوله (جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ) (14) تأكيد على أن عذاب الله ينال الكافرين في الدنيا قبل الآخرة ، وأن هذا جزاء مستحق لنبي الله نوح إجابةً لدعوته على قومه ، فانتصر الله له ، وأهلكهم ، لإصرارهم على الكفر بنبيهم ، وعنادهم مع الحق الذي أُرسل به ، رغم وضوح الآيات البينات التي أرسلت لهم ، فليس بعدها سبب للإمهال والإنظار وقد قامت الحجة عليهم .

---

[1]) فتح الباري لابن حجر ج4 ص 340
[2]) (دسر) قيل جمع دسار وهو المسمار وقيل الدسر صدر السفينة - انظر البخاري ج 4 ص 1842 -
[3]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ص 2231 ،
[4]) تفسير ابن كثير ج7 ص 477
[5]) موسوعة البحوث والمقالات العلمية ص 3 مع إضافة من عندي

وكلمة (كُفر) فعل مبني للمجهول أو لم يسم فاعله لإفادة العموم بالقياس ، والمقصود هو نبي الله (نوح) وغيره ممن يكذبون من الأنبياء والصالحين ، ذلك أن أهل الحق نعمة لقومهم ، وتكذيبهم كفر بالنعمة ، ولذلك قال الزمخشري (وجعله مكفوراً لأنّ النبي نعمة من الله ورحمة)[1].

والمعنى أن النجاة هي جزاء لنوح الذي كفر به قومه ، أي كما قال الماوردي (مكافأة لنوح حين كفره قومه أن حمل ذات ألواح ودسر)[2] ، أي آمن وعمل صالحا ودعا إلى الله ثم صبر وكُذِّب فصبر واضطهد فصبر ، فنجاه الله وأهل قومه جزاء لما صنع مع قومه ، وقد صبر عليهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وكان يدعوهم ليلا ونهارا دون أن يفتر في ليل أو نهار .

وفي قوله (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[3]) تأكيد على أن مصرع هؤلاء القوم أضحى آية لا يشكك فيها أحد[4]، قال الدكتور مساعد الطيار " **اتفاق الشعوب كلها على معرفة الحدث** ، أي قوله (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً)"[5]، فالنصارى يؤمنون بقصة نوح في كتبهم ، وقد ورد في الإصحاح الثامن من سفر التكوين من التوراة " واستقر الفلك على جبال آراراط"[6] ، وهذه الحقيقة أصبحت ثابتة علميا [7]، أن أضحى النصر حليف القلة المؤمنة ، قال تعالى **(وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ)** (هود 40) ، فعلينا أن نعتبر بهذه القصة اعتبارا يجعلنا نتذكر الحكمة التي أهلك الله بسببها البشرية كلها إلا قليلا ، إنها حقا لآية لابد وأن يتعلمها الصغير والكبير ، ولابد وأن تحكي البشرية لبعضها البعض قصة فناء الكون إلا ما استثناه الله منه ، وأن الله غير معالم الكون لأجل هذه الفئة المستضعفة التي كانوا يسمونهم **(أراذلنا)** ، ولم يكن ثمة احتمال لأن ينضم أحد منهم لفريق المؤمنين ،

---

1) الكشاف ج6 ص 451

2) النكت والعيون ج4 ص 199

3) قال الفراء ومُذكر في الأصل مُذْتَكِر على مُفْتَعِل فصيرت الذال وتاء الافتعال دالاً مشدّدة – لسان العرب ج4ص 290 –
عن عبد الله قال قرأت على النبي ﷺ{ فهل من مذكر } ، فقال النبي ﷺ " فهل من مدكر" رواه البخاري ج4ص1845 رقم 4593 ، والحديث يدل على تصحيح القراءة لعبد الله من النبي ﷺ ، وأنه لم يقره على قراءتها مذكر ، فكان تصحيحه له أن تقرأ (مدكر) .لكن الرواية تذكر من باب التفسير للفظ الوارد بالمصحف .

4) يعتقد علماء الجيولوجيا أن الصخور الرسوبية تتشكل من الرمال ورواسب أخرى كانت عالقة في الماء ثم استقرت وأملاح معدنية تذوب في المال ، بالإضافة إلى الأجزاء الصلبة من الكائنات المائية الصغيرة مثل البلانكتونات (العوالق) التي تتراكم في قاع المسطحات المائية ثم تتحجر بفعل الضغط ، وعلى الرغم من أن نسبة الصخور الرسوبية على الأرض لا تتجاوز 8 % فإن نسبة تتراوح بين 75% إلى 80 % من مساحة اليابسة مغطاة بالصخور الرسوبية ، الأمر الذي يشير إلى وجود أدلة قاطعة على أن ما لا يقل عن 75 % من مساحة اليابسة كانت مغمورة بالمياه في الماضي ، بل إن كمية المياه الموجودة اليوم تكفي لتغطي سطح الأرض بالكامل لعمق 2,7 كم ، ولما كان العمق المتوسط للمحيط هو 3,7 كم فإن ذلك ليشير إلى أنه عمق المحيطات زاد بسبب تدفق المياه من القارات إلى المحيطات تاركة خلفها أرض جافة ، بالإضافة إلى ذلك فإن الأحافير الموجودة حاليا لتدل على أن عملية التحفر وحتى تتم تطلبت دفنا سريعا للخليط الرسوبي تبعه تصلبا سريعا لهذا الخليط ، ذلك أن الدفن البطئ لا يؤدي إلى التحفر لأن البقايا في تلك الحالة تتلاشى قبل أن تتحول إلى أحفورة ، وهو ما ينطبق كذلك على الوقود الحفري الذي يتطلب لتشكله دفن كميات هائلة من المواد العضوية تحت خليط رسوبي ثم تعرضه للحرارة والضغط ، في حين أن عملية الدفن البطئية لا تنتج وقودا حفريا ، إلى غير ذلك من الشواهد الأخرى كالطبقات الصخورية والأخاديد تحت البحرية والأخاديد الأرضية والطبقات الرسوبية النقية ، والصفائح التكتونية كل ذلك ليشهد بأن دمارا شاملا قد طرأ على الأرض نتج عن طوفان كبير
مركز الفكر الغربي : جيولوجيا الطوفان : http://www.cwestt.com/encyc/Flood_geology

5) https://vb.tafsir.net/tafsir27911/#.WzMr6flTJxA
الدكتور مساعد بن سليمان الطيار عضو مجلس إدارة مركز تفسير للدراسات القرآنية ، والأستاذ المشارك بجامعة الملك سعود .

6) جاء في الإصحاح الثامن من الإنجيل المحرف عند النصارى : وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: «ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارّاً لَدَيَّ فِي هَذَا الْجِيلِ. 2مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ تَأْخُذُ مَعَكَ سَبْعَةً سَبْعَةً ذَكَراً وَأُنْثَى. وَمِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ طَاهِرَةً اثْنَيْنِ: ذَكَراً وَأُنْثَى. 3وَمِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أَيْضاً سَبْعَةً سَبْعَةً: ذَكَراً وَأُنْثَى. لاسْتِبْقَاءِ نَسْلٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ. 4لأَنِّي بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ أَيْضاً أُمْطِرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَأَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ كُلَّ قَائِمٍ عَمِلْتُهُ». 5فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ الرَّبُّ. 6وَلَمَّا كَانَ نُوحٌ ابْنَ سِتِّ مِئَةِ سَنَةٍ صَارَ طُوفَانُ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ 7فَدَخَلَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ إِلَى الْفُلْكِ مِنْ وَجْهِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ. 8وَمِنَ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ طَاهِرَةً وَمِنَ الطُّيُورِ وَكُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ. 9دَخَلَ اثْنَانِ اثْنَانِ إِلَى نُوحٍ إِلَى الْفُلْكِ ذَكَراً وَأُنْثَى. كَمَا أَمَرَ اللهُ نُوحاً.

7)Images taken by aircraft, intelligence-gathering satellites and commercial remote-sensing spacecraft are fueling an intensive study of the intriguing oddity. But whether the anomaly is some geological quirk of nature, playful shadows, a human-made structure of some sort, or simply nothing at all remains to be seen.
Whatever it is, the anomaly of interest rests at 15,300 feet (4,663 meters) on the northwest corner of Mount Ararat, and is nearly submerged in glacial ice. It would be easy to call it merely a strange rock formation.
But at least one man wonders if it could be the remains of Noah's Ark, a vessel said to have been built to save people and selected animals from the Great Flood, the 40 days and 40 nights of deluge as detailed in the Book of Genesis.
The Genesis blueprint of the Ark detailed the structure as 6:1 length to width ratio (300 cubits by 50 cubits). The anomaly, as viewed by satellite, is close to that 6:1 proportion.
http://edition.cnn.com/2006/TECH/space/03/13/satellite.noahs.ark/index.html

كما ظن نبي الله نوح بهم (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (نوح 26 27)

ولو كان ثمة احتمال أن يولد منهم من يوحد الله ويؤمن به لما دعا نبي الله نوح عليهم بالهلاك ، ولكنهم لما تمكنوا من استضعاف المؤمنين ، وأضحى عنادهم واستكبارهم ظاهرا كان في تعجيل هلاكهم مصلحة للبشرية لتطهير الأرض من سيطرة المستكبرين فيها على مقاليد الأمور بما لا يسنح بتصحيح الأوضاع بجهد المؤمنين ، ولم يحصل ذلك إلا بعد ألف سنة إلا خمسين عاما من الجهد الدعوي .

وفي قوله (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) أي أن العذاب لم يقع بهم إلا بعد أن جاءتهم النذر ، قيل (النذر جمع نذير بمعنى الإنذار) ، (فالإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت عليهم ، فلما لم تنفع وقع العذاب وقعة واحدة ،فكانت النعم كثيرة والنقمة واحدة)[1] ، قال تعالى (اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(المائدة 98)

قال ابن عاشور (وهو في صورة جواب الاستفهام الصوري .. تعريضا بتهديد المشركين بعذاب على تكذيبهم) ، ففي ذلك تذكير لقريش بعذاب الله وإنذار شديد ليبادروا بالدخول في الإيمان وعدم إنكار الآيات وإلا نزل بهم العذاب العاجل في الدنيا قبل الآخرة مثلما حصل لقوم نوح .

وفي قوله (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) تأكيد على تيسير الذكر للناس ، ونظيره قوله (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا) (مريم 97) ، **فلا يحتاج لفهمه اكتساب ثقافة عالية** ، وقد فهم معانيه الصحابة وهم أناس أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنما يكفي من يتلقى القرآن أن يشرح صدره له ، فيستقبله بإيمان ويقين أنه كلام الله تعالى (**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)(الدخان 58) ، فكتاب الله تعالى سهل المنال ، يسير على من يسره الله عليه ، فهو المعجزة الباقية الخالدة التي لا تتقيد بمكان ولا زمان، ولا عذر لأحد في عدم الإطلاع عليه أو تعلمه لأن الله تعالى يسره تيسيرا ينفي عن المكلفين أعذارهم ، وليس أدل على ذلك من **فاتحة الكتاب** التي جعل الله فيها مفاتيح العلوم والحكم والأحكام جمعها فيها إجمالا.

وليس أدل على تيسير القرآن أن معشر **صحابة النبي ﷺ حيث كانوا قوما أميين** ، ورغم ذلك لم تمنعهم أميتهم ولم تقف حائلا بينهم وبين تعلم كتاب الله تعالى وإتقانه إتقانا ننقله عنهم في روايات المصحف متواترة إلى زمننا هذا ، قال النبي ﷺ (**خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب**) [2] ، قال ابن حجر في الفتح : (قوله خذوا القرآن من أربعة أي تعلموه منهم والأربعة المذكورون اثنان من المهاجرين ، وهما المبدأ بهما ، واثنان من الأنصار وسالم

1) تفسير روح البيان ج9 ص 224
2) رواه البخاري ج4 ص 1912 رقم 4713

هو بن معقل مولى أبي حذيفة ومعاذ هو بن جبل) ، فمَن مِن هؤلاء القراء كان يعرف القراءة والكتابة ؟ ذلك أنهم لم يتعلموا القرآن بأسلوب القراءة والكتابة ، ولكنهم تلقوه من فم النبي ﷺ كما تلقاه هو عليه السلام من فم جبريل عليه السلام.

يقول عبد الله بن مسعود : (كنت غلاما يافعا أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط ، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وقد فرا من المشركين ، فقالا يا غلام هل عندك من لبن تسقينا ؟ قلت إني مؤتمن ولست ساقيكما ، فقال النبي ﷺ هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل ؟ قلت نعم ، فأتيتهما بها ، فأعتقلها النبي ﷺ ومسح الضرع **ودعا** ، فحفل الضرع ثم أتاه أبو بكر رضي الله عنه بصخرة منقعرة فاحتلب فيها فشرب وشرب أبو بكر ثم شربت ثم قال للضرع أقلص فقلص ، فأتيته بعد ذلك **فقلت علمني من هذا القول** قال (إنك غلام معلم) ، قال فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد)[1]، فالحديث شاهد على تيسر تعلم الصحابة للقرآن والأذكار والأدعية ، لأنهم قبلوه بصدور منشرحة بالإيمان ، ولم يقابلوه بالإنكار والتكذيب .

فإذا تأكد لنا أن الله تعالى يسر تعليمه على الصحابة وهم صغار غلمان يرعون الغنم ولا يعرفون القراءة والكتابة بل كانوا أمة أمية ، في الوقت الذي لم يثبت فيه تاريخيا أو علميا أن الإنسان استطاع أن يتعلم كتابا كاملا مشافهة بلا قراءة ولا كتابة غير القرآن الكريم ، علمنا بعد ذلك أن **معجزة القرآن باقية حتى في طريقة تعلمه وتعليمه** ناهيك عن حكمه وآياته.

بل إن **كثير من العجم المسلمين يحفظون آيات من القرآن رغم أنهم لا ينطقون كلمة عربية واحدة** ، ينطقون الشهادتين ويعون معناها دون أن يقدروا على قراءتها ، فهو كتاب يسر الله تعالى تعليمه شفاهة وكتابة وقراءة ، (يُروى أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل والزبور لا يتلوها أهلها إلا نظراً ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن)[2] ، قال السيوطي : (المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى **ومعجزات القرآن تشاهد بالبصيرة** فيكون من يتبعه لأجلها أكثر لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا ... وأكثر **معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم** ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذووا البصائر) [3] .

---

[1]) رواه أحمد في مسنده ج1 ص 462 رقم 4412 وابن حبان في صحيحه ج14ص432 وغيرهما وصححه الألباني انظر صحيح السيرة النبوية ج 1 ص 124
2) تفسير النسفي ج3 ص 379
[3]) الإتقان في علوم القرآن – النوع الرابع والستون في إعجاز القرآن .

المطلب الثالث

آية الله في قوم هود

قال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ* تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) (القمر19-22)

قال ابن كثير " وهم أبناء عوص بن أرم بن سام بن نوح"[1] ، فقوم عاد هم أبناء إرم ، قال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) (الفجر6 8) ، لم يذكر القرآن الكريم معجزة مادية خارقة بعينها لنبي الله هود ،لكنه أثبت الإتيان بها لهم ، وتكذيبهم بها على وجه الإجمال دون تفصيل ، فقال سبحانه (**وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ**)(هود:59) ، ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ (مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2].

وقد سبر العلماء عن المعجزة المادية التي جاء بها هود لقومه ، فذكر بعض العلماء أن آية هود عليه السلام تحديه لقومه بهذه الطريقة وهو بين أظهرهم ، فهم كانوا أقوياء في البنية الجسدية أشداء في البنيان والمعمار ، وهود كان ضعيفا لا يملك قوتهم ولا نفوذهم ورغم ذلك لم يهابهم وتحداهم فقال لهم (**فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون**) ، قال الألوسي (وأياً مّا كان فذاك من أعظم المعجزات بناء على ما قيل: إنه كان عليه السلام مفرداً بين جمع عتاة جبابرة عطاش إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على ما هيجهم فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً ، وفي ذلك دلالة على مزيد ثقته بالله سبحانه وكمال عنايته به وعصمته له ، وقد قرر ذلك بإظهار التوكل على من كفاه ضرهم في قوله (إِنِّ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ)[3].

ففي قوله (كَذَّبَتْ عَادٌ..) ضرب الله بهم مثالا آخر من غابر الزمان لما بعد الطوفان ، حيث لم يكن على الأرض من البشر غير المؤمنين ..... لكن بمرور الوقت نسي القوم وصية نوح عليه السلام ، وزين لهم الشيطان عبادة الأصنام فانحرف الناس لعبادتها دون الله تعالى ، والأصنام وسطاء بين العابد والمعبود وهم الشياطين ، فأرسل سبحانه نبيه هود عليه السلام إلى قوم عاد ليذكرهم وينذرهم ، (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ **اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ**) (الأعراف 65) ، لكنه قوبل بذات الصد الذي قابل به قوم نوح نبيهم عليه السلام ، فذكرهم نبيهم هود بقوم نوح الذين سبقوهم ، ثم ذكرهم بنعمة الله عليهم أن بسط في أجسامهم ، فقال (وَاذْكُرُواْ **إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ** وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ، ولكنهم عاندوا (قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) (الأعراف69 70) ، وهكذا بدا منهم الكفر والعناد ، وطلب الآيات لتكون حجة عليهم .

---

[1]) ابن كثير ج1 ص 120 – والطبري ج
[2]) رواه البخاري ج22 ص 242 رقم 6732
[3]) تفسير الألوسي ج8 ص 280

وفي قوله تعالى (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) تأكيد باضطراد ذات السنة الإلهية التي سرت على قوم نوح بأن الله تعالى يرسل النذر تترا ، قال تعالى (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا **كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ**..) (المؤمنون 44) ، لكن **يظل التكذيب مقترنا باستعجال العذاب** الذي نزل بهم ، قال سبحانه (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ** رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (الأحقاف24 25) .

وفي قوله تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ) وصف لكيفية إنزال العذاب بهم ، وهو عذاب له طبيعة تناسبت مع الجرم الذي اقترفوه ، فهم قوم تباهوا بأجسامهم وتفاخروا ببنيانهم ، فلم تنفعهم قوة أجسامهم ولا شدة بنيانهم من أن تحميهم من البرد والريح العاتية التي أهلكتهم .

ونظير هذه الآية قوله تعالى " **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ **سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا**) (الحاقة6 7) ، ونظير ذلك كذلك قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ) (فصلت 16) ،

وقوله (صَرْصَرًا) قيل أي شديدة البرودة[1] ، هكذا أهلكهم الله بالبرد ، ليعلم الإنسان مقدار ضعفه فلا يستكبر ، فلو انخفضت درجة حرارة الجو أو ارتفعت بحيث لا يستطيع جسده التأقلم على هذا الانخفاض ، فإنه يموت سريعا ، ولكن الله لم يرد لهم موتا سريعا ، فأذاقهم العذاب سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، ليعلموا أن أجسادهم التي طالما تفاخروا بها لا تقدر على مقاومة الهواء البارد أسبوعا كاملا ، فلم يستطيعوا أن يفروا منها ولم تحمهم أحقافهم أي الجبال التي نحتوها ، فقد اخترقت الريح الصرصر صخور الكهوف لتصل إليهم فتهلكهم .

وقيل هي ريح شديدة قوية لها صوت [2]، فكنى بالصوت للدلالة على المعنى الأول وهي شدتها وسرعتها ، لأن الريح شديدة البرد تكون قوية ولها صوت صرير ،قال الشنقيطي (الريح الصرصر هي الريح العاصفة شديدة الهبوب يسمع لها صوت)[3] ، أي صوت صرير القلم أو الباب ، قال العثيمين (لشدتها وسرعتها يسمع صوتها ولو لم تصطدم بشيء)[4] ، ومنه

[1]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ص 2953 ،
[2]) التحرير والتنوير ج27 ص 184
[3]) أضواء البيان ج7 ص 16
[4]) تفسير القرآن للعثيمين ج12 ص 11

قوله (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ) [الذريات:29] أي في صيحة وهي منزعجة ، وتكون مهلكة كما في قوله (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ) [آل عمران:117] .

قال اللغة كالخليل ابن أحمد (وريحٌ صَرْصرٌ ذات صِرَّ ويقال ذاتُ صَوْتٍ والصَّرْصَرُ نعت لها من البرْدِ ، والصَّرُّ البرد الذي يضربُ كل شيءٍ ويحُسُّه ، ومنه قوله تعالى (فيها صِرٌّ) [1]، وجاء في لسان العرب (قال الأَزهري وقوله بِريح صَرْصر أَي شديد البَرْد جدّاً)[2].

قوله (..فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ) وصف الله اليوم الذي أنزل فيه عذابه على قوم عاد إرم ذات العماد بوصفين (نحس) و(مستمر) .

فالصفة الأولى أنه يوم نحس ، قال العلماء "كانت أياماً نحسات عليهم....، فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين ، وكذلك يوم القيامة فإنه عسير على الكافرين، يوم نحس عليهم ، ويسير على المؤمنين يوم سعد لهم"[3].

وسمي بيوم نحس لأنهم أخروا التوبة حتى جاء هذا اليوم ، فلم تنفعهم توبة بعدما عاينوا العذاب ، قال تعالى (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ) (الأنعام 158).

وقد نهى الإسلام عن سب الدهر ، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[4] ، والجمع بين الآية و الحديث ، هو أن الله يصف ما شاء بما يشاء ، ومورد النهي بالنسبة للمكلفين هو الاعتراض على القضاء والقدر [5].

والصفة الثانية : أنه نحس مستمر ، قال ابن تيمية "ومستمر صفة للنحس لا لليوم ، ومن ظن أنه صفة لليوم فقد غلط وأخطأ فهم القرآن .... فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل" [6].

وهو ما يشير إلى أنه كلما كذب قوم بمثل ما كذب قوم عاد أتاهم يوم نحس يهلكهم الله فيه كما أهلكهم ، فهذه سنة مستمرة مطردة ، ولابد وأن تحصل في كل قوم فعلوا مثلما فعلوا .

---

[1]) كتاب العين ج7 ص 82
[2]) لسان العرب لابن منظور ج4 ص 450
[3]) عبد المجيد بن سالم المشعبي : التنجيم والمنجمون ج1 ص 255 أضواء السلف الرياض المملكة العربية السعودية 1419هـ 1998 م ط الثانية
[4]) رواه البخاري ج15 ص 50 رقم 4452
[5]) الشيخ مصطفى العدوي :
https://www.youtube.com/watch?v=r9QP8R0_DDA
6) مفتاح دار السعادة ج2 ص 194

وفي قوله (تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ) تصوير لشدة الفتك بهم ، فالنزع : "الإزالة بعُنف لئلا يبقى اتصال بين المزال وبين ما كان متصلاً به"[1] ، أي "تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذاً بعضهم بأيدي بعض ويتداخلون في الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم"[2]

ففي الآية بيان بتشبيه الريح بطائر له مخالب وأجنحة قوية تستطيع أن تخطف الناس من الأرض فترفعهم في الهواء وترميهم حيث تشاء صرعى .

وقوله (..كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ [3]) تشبيه لجثثهم بعد مقتلهم بأصول نخل منقلع من مغارسه ،" لأنهم طوال عظام الأجساد كالنخل" [4] ، "وشُبِّهوا بأعجاز النخلة ، وهي أصولها التي قطعت رؤوسها ؛ لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم ، فتبقى أجساداً بلا رؤوس ، فيتساقطون على الأرض أمواتاً ، وهم جثث طوال" [5]و(مُنْقَعِرٍ) : اسم فاعل انقعر ...، أي "كأنهم أعجاز نخل قعرت دواخله وذلك يحصل لعود النخل إذا طال مكثه مطروحا"[6]

---

1) ابن عاشور : التحرير والتنوير
2) تفسير النسفي ج3 ص 379
3) قد يسأل سائلٌ فيقول: إن وصف القوم في سورة الحاقة قد جاء مخالفٌ لوصفهم هنا في سورة القمر، ففي سورة القمر قال: (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) [القمر:20]، وفي سورة الحاقة قال: (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) [الحاقة:7]. أليس في هذا خلافٌ، فالعجز المنقعر الخارج من التراب تفوح منه رائحة الرطوبة، وتلوح عليه آثار الخصوبة؛ لكن الأعجاز الخاوية تظهر بأنها خاليةٌ من الخضرة والخصوبة، جافةٌ من آثار الرطوبة، عاريةٌ من قشورها، منخورةٌ في لبها، فكيف نفهم التشبيهين مع الخلاف بين الصفتين؟.
لكن الجواب سهلٌ لمن تأمل، فالوصف في سورة القمر بأنهم أعجاز نخلٍ منقعرٍ، يشبه حالهم في بداية أيام العذاب، ولهذا قال: (فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ) [القمر:19]، فهي تصفهم في بداية اليوم المنحوس والريح تنزعهم من المباني وتخرج الأجساد والرؤوس، وترميهم إلى العراء وفي الديار نجوس؛ فهم في هذه الحال لا يزالون على قربٍ من الحياة، وفيهم أثرٌ للنعمة الثراء؛ لكنهم بلا حياةٍ؛ فهم كأعجاز النخل المنقعر؛ الحديث الخروج من التراب، لا يزال عليه أثر الخضرة والإخصاب.
لكن الصورة في سورة الحاقة تصف حالهم بعد مرور أيامٍ وليالٍ من النحس المستمر، والريح الصرصر تجففهم وتدمر، ولكي تكون حالتهم منظورة، فالآيات في سورة الحاقة توضح الصورة، وتجعلها واضحةً مشهودة؛ فلنقرأ:
(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) [الحاقة:6-7]، هكذا وردت صفتهم في سورة الحاقة.
إذن فإن التشبيه يأتي هنا ليصف حالهم ويصورهم في نهاية الأيام الحاسمة، والليالي الحاطمة. إنها ريحٌ صرصرٌ عاتية، استمرت حتى وصلت بهم إلى النهاية، لكن التشبيه في سورة القمر يصور حالهم في البداية؛ ولهذا ختمت آيات الحاقة بقوله تعالى: (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) [الحاقة:8]؟.
لا لم نجد لهم أثراً، ولم نر لهم باقية، وهذا يؤكد ما جاء في البداية في سورة الذاريات في وصف الريح بأنها: (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) [الذاريات:42].
فلقد جعلت القوم كما تجعل الأشياء، كالرميم الذي لا أثر فيه لحياةٍ ولا بقاء.
الإذاعي الشاعر إسماعيل حسين الكبسي أستاذ البلاغة والتفسير في جامع صنعاء الكبير باليمن - التشبيه في القرآن : http://ismailkibsi.org/?p=161
4) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 2236
5) البحر المديد ج6 ص 192
6) ابن عاشور التحرير والتنوير ج 27 ص 186

ونظيره قوله تعالى " فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) (الحاقة7- 8)وهنا في هذه السورة قال الله تعالى: (كأنهم أعجاز نخل منقعر)،والمعنى متقارب بين "خاوية" و"منقعر" ، "وكلاهما مناسب للفواصل التي في السورتين ، لأن تناسب الكلام واتساقه من كمال فبلاغة القرآن بأن يجري الكلام فيه على نسق واحد" [1] .

والمتدبر في سبب إهلاكهم بهذه الطريقة يزداد عجبا عندما يعلم أن الذين آمنوا مع هود عليه السلام كانوا عددا قليلا من المستضعفين ، فأنزل الله عذابه على المستكبرين ، وهم الكثرة المتغلبة ، فأهلكهم حين كانت القلة المؤمنة مستضعفة ، قال سبحانه (**فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا** وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ) (الأعراف 72) ،

فالحذر أن يُستضعف المؤمنون ، لأن الله تعالى ناصرهم ، فالقرآن ينذر المستكبرين والمتكبرين أن يستضعفوا الذين آمنوا ، إذ لو حدث ذلك وأضحى أمر استضعافهم حقا ، فإن عذاب الله بالمستكبرين قريب ونصره للمؤمنين وشيك ، ومن يريد أن يتأكد من ذلك فعليه أن يراجع قصص القرآن الذي يسره الله للذكر ، فهل من مدكر ؟

وفي قوله (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) تكرار من باب الإطناب في المعنى للتأكيد على اطراد سنة الله في الظالمين والمتكبرين ، قال أهل التفسير (وتكرار العبارة هكذا فى البداية والنهاية **إخراج لها مخرج الاهتمام** ، مع ملاحظة أن أحداث القصة هنا صُورت فى عبارات قصيرة ولكنها محكمة وافية).. [2]

وفي قوله (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) تأكيد على المعجزة الباقية إلى يوم القيامة ، هذه المعجزة تظهر في تيسيره للناس ، وبإعجازه قد أنذر ، وبإنذاره أقام الحجة ، فهل من متعظ بذلك ، يقول الدكتور مساعد الطيار : "التيسير يشمل تيسير ألفاظه للقرآءة، تيسير معانيه للفهم، وأيضاً تيسير العمل به ، **فجميع أنواع التيسير حاصلة فيه** ، وهذه من نعمة الله أن جعل كلامه ميسراً للناس وليس فقط للمؤمنين" ، ويستطرد قائلا " لا يوجد آية أو كلمة لا يعلم أحد معناها ، فالسلف تكلموا عن جميع الآيات حتى الأحرف المقطعة التي ظنّ قوم أنها من المتشابه الذي لا يعلم به إلا الله تكلم فيها السلف ، مما يدل على أنه **ليس هناك شيء في القرآن إلا وهو معلوم المعنى**" [3].

---

[1]) تفسير القرآن للعثيمين ج12 ص 12
2) ا.د/ عبد العظيم المطعنى http://amlsobhy.blogspot.com/2010/10/blog-post_4809.html
3) https://vb.tafsir.net/tafsir27911/#.WzMr6flTJxA

المطلب الرابع
آية الله في قوم صالح

قال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ، فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ، أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ، سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ [1] ، إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ [2]، وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ [3] مُّحْتَضَرٌ [4]، فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى [5]فَعَقَرَ [6]، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ [7]، وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) (القمر23-32)

يقول الأستاذ أحمد بهجت (انحدرت سنوات وسنوات ... ولد أناس ومات أناس ... وجاء بعد قوم عاد قوم ثمود ، وتكررت قصة العذاب ....) [8] ، وقد أُرسل إليهم نبيهم صالح من أولاد ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح [9] ، قال تعالى : (**وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ** وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الأعراف74)

وفي قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ) لم تبين الآيات المقصود بالنذر على وجه التحديد والمفسرون أولوها على معنى الآيات ، أي أنهم كذبوا بالآيات التي جاءتهم من نبيهم صالح ، ومنها الناقة ، ولم تكن آية واحدة بل آيات ، وسميت الآيات نذر ، لأن الذي يكذب بها فقد تم إنذاره وإعذاره .

قال الأصفهاني (الانذار إخبار فيه تخويف كما أن التبشير إخبار فيه سرور، قال: (فأنذرتكم نارا تلظى – أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود – واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالاحقاف – والذين كفروا عما أنذروا معرضون – لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع – (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم) والنذير المنذر ويقع على كل شئ فيه إنذار إنسانا كان أو غيره (إني لكم نذير مبين – إني أنا النذير المبين – وما أنا إلا نذير مبين – وجاءكم النذير – نذيرا للبشر) والنذر جمعه، قال: (هذا نذير من النذر الاولى) أي من جنس ما أنذر به الذين تقدموا قال: (كذبت ثمود بالنذر – ولقد جاء آل فرعون النذر – فكيف كان عذابي ونذر) وقد نذرت أي علمت ذلك وحذرت)[10]

---

1) الأشر : البطر والمتسرع ذو الحدة معجم ألفاظ القرآن الكريم ج1 ص 41 مجمع اللغة العربية
أشر : مرح ونشط و بطر واستكبر – انظر المعجم الوجيز ص18 مجمع اللغة العربية -
الأَشَرُ المَرَح والأَشَرُ البَطَرُ أَشِرَ الرجلُ بالكسر يَأْشَرُ أَشَراً فهو أَشِرٌ وأَشْرٌ وأَشْرانُ مَرِح – لسان العرب ج 4 ص 20 -
2) الصبر القوي وهو كالارتقاب أيضا أقوى دلالة من الصبر أي أصبر صبرا لا يعتريه ملل ولا ضجر أي أصبر على تكذيبهم ولا تأيس من النصر عليهم وحذف متعلق (أصطبر) ليعم كل حال تستدعي الضجر . والتقدير : وأصطبر على أذاهم وعلى ما تجده في نفسك من انتظار النصر – التحرير والتنوير ج1 ص 4231 -
3) الشرب بالكسر الحظ من الماء – القرطبي -
4) قال مجاهد { محتضر } يحضرون الماء - انظر البخاري ج 4 ص 1842 - حضره القوم يومهم والناقة يومها فتمادوا على ذلك ثم ملوه فهموا بقتل الناقة – الفتح القدير -
5) صيغة تفاعل تقتضي تعداد الفاعل شبه تخوف القوم من قتلتها لما أنذرهم به رسولهم من الوعيد وترددهم في الإقدام على قتلها بالمعاطاة فكل واحد حين يحجم عن مباشرة ذلك ويشير بغيره كأنه يعطي ما بيده إلى يد غيره حتى أخذه – التحرير والتنوير ص 4232 -
6) عطف (فعقر) بالفاء للدلالة على سرعة إتيانه ما دعوه لأجله - وأصله ضرب البعير بالسيف على عراقيبه ليسقط إلى الأرض جاثيا فيتمكن الناحر من نحره – التحرير والتنوير ص 4232 -
7) قال ابن كثير المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح وقال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظارا على الإبل والمواشي من ييبس الشوك
8) الأستاذ /أحمد بهجت - أنبياء الله ص 67 دار الشروق - دار الريان للتراث الطبعة الخامسة عشر 1987 م- 1407 هـ
9) ابن كثير ج1 ص 131
10) مفردات غريب القرآن للأصفهاني ج1 ص 487

وفي قوله تعالى : (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ) ، بيان لأول أسباب صدهم عن سبيل الله وكفرهم بنبيهم أن استنكفوا أن يكون الرسول بشرا منهم ، يُلقي إليه الوحي من بينهم اصطفاء له من الله دونهم ، وتفضيلا له عنهم ، ونظير ذلك قوله تعالى (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ **أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ** قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**)(الأعراف74-76)

يعلق صاحب الظلال على ذلك قائلا : (وهي **الشبهة المكررة** التي تحيك في صدور المكذبين **جيلا بعد جيل**: كما أنها هي الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة , إنما **تنظر إلى شخص الداعية** ... وماذا في أن يختار الله واحدا من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . . إنها شبهة واهية لا تقوم إلا في النفوس المنحرفة .. فتستكبر عن إتباع فرد من البشر , مخافة أن يكون في إتباعها له إيثار وله تعظيم ، وهي تستكبر عن الإذعان والتسليم لله خالق البشر ، ..

يقول سيد قطب في قوله (...إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ..) (وأعجب شيء أن يَصِفُوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى !وأن يَحْسَبُوا أنفسهم في سعر – لا في سعير واحد – إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان !)[1]

قوله (..أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ).. يتهمون رسولهم .. بالكذب والطمع ، يقولون "كذاب" لم يُلقْ عليه الذكر ، "أشر" :شديد الطمع في اختصاص نفسه بالمكانة !

يقول قطب (وهو الاتهام الذي يواجه به كل داعية ، **اتهامه بأنه يتخذ الدعوة ستارا لتحقيق مآرب ومصالح** ، وهي دعوى المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب)[2] .

وهكذا يبدو من أسلوب هجومهم لرفض دعوة نبيهم أنهم يحيلون الخلاف بينهم وبينه إلى نزاع شخصي ، ولا يتحدثون بموضوعية مجردة ، فهم يتهمونه اتهامات ليس لها أي أساس ،ولا يمكن التدليل عليها بأدلة محسوسة ، فالطمع الذي ينسبونه لنبيهم كيف ينسبوه له دون أدلة واضحة ، فالطمع من صفات النفس البشرية لا يظهر للناس إلا إذا استأثر الطامع بشيء لنفسه دون غيره ، ولم يكن النبي ﷺ كذلك ، بل إن سيرته لتدل على خلاف ذلك ، عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ لِعُرْوَةَ ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ فَقُلْتُ يَا خَالَةُ مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ قَالَتْ الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا)[3].

---

1) سيد قطب : في ظلال القرآن
2) سيد قطب : في ظلال القرآن
3) رواه البخاري ج9 ص 10 رقم 2379

ويقول النبي ﷺ (**إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**)[1] ، يقول عمر بن الخطاب (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ قَالَ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ قَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ **أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا** قُلْتُ بَلَى) [2].

وفي قوله (إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ..) أي أن الله يختبرهم ويفتنهم ليظهر طمعم وشرههم وعنادهم لما اتهموا نبيهم صالح بأنه كذاب أشر ، حيث أظهر الناقة أنهم هم الذين يتصفون بهذه الصفات الذميمة ، لما طمعوا في نصيبها المحرم عليهم وعقروها دون حق .

وفي قوله (..فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ..) أي انتظر يا صالح ، لترى ويرى الناس جميعا من الكذاب الأشر ، فالمواقف العملية هي خير دليل لإثبات الصفات الذميمة بأصحابها ، والزمن جزء هام لإثبات ذلك ،وما عليك إلا أن تصبر ، يقول تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (الحج 38) .

وفي قوله (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ) فمحل الفتنة هو قسمة الماء بينهم وبين الناقة تشرب يوما ويشربون يوما ، هكذا قسم الله الأرزاق بينهم ، ولكن الحسد والغيرة والطمع والحقد والشره صفات مذمومة ، تحمل صاحبها على أن يسلب حقوق غيره ، والله حرم عليه ذلك ، فالحسد حمل ابن آدم أن يقتل آخاه ، يقول النبي ﷺ (علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت، إن العين حق، توضأ له)[3].

وفي قوله (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)هذا الموقف دليل يدحض الشبهة التي آثاروها بأن نبيهم يطمع في نصيبهم من الدنيا ، وهم الذين طمعوا في نصيب ناقة الله من الماء ، فعليهم أن يمتثلوا لأمر نبيهم الشرعي ، بأن يلتزموا قسمة الماء بينهم وبينها ، وألا يمسوها السوء كما أمرهم، قال تعالى (هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(الأعراف 73)

وهكذا يقسم الله الأرزاق بينهم وبين الناقة المعجزة ، فالماء يسقى منه الزرع وتشرب منه بهائمهم ويشربون هم منه ويغسلون حاجاتهم ، ولكنهم لم يرتضوا تلك القسمة استكبارا ، أيجعل الله للناقة نصيب من الماء دونه ، أي يوم تختص هي وحدها بالشرب من الآبار ، فيكون لهم شرب ولها شرب ، فطمعوا في نصيبها ، اعتراضا على قسمة الله الرزق بينهم ، قال

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 133 رقم 4099 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة 401/2
[2]) رواه مسلم ج7 ص 441 رقم 2704
[3]) رواه ابن حبان ج13 ص 470 صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 49

تعالى (**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ..)(الزخرف 32) ، قال الله تعالى (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (الشعراء 155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (الشعراء 156) فماذا فعلوا بعد ذلك ؟ جاء أشقاهم فعقر الناقة بعد أخذ بعضهم بيد بعض لأن لا يتأثموا من جريمته ، قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (الشعراء 157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (الشعراء 158)

وهكذا يظهر لنا القرآن أنهم هم الأشرون ، هم الذين يطمعون في نصيبها ، حتى ولو كان يسيرا ، انظر كيف يبتليهم الله تعالى بأمر يسير عليهم أن يتركوها ولا يعقروها ، فمن الذي يحمل في قلبه الطمع والشر فيذبحها ليأخذ نصيبها من الماء ؟ **استخفوا بحق الناقة وظنوا أن الله تعالى قد يتركهم ينجون بفعلتهم هذه** ، إن الله تعالى لا يضيع حق أحد من خلقه ، وإنما يغضب حين تنتهك الحقوق ويعتدى على حق الضعفاء ولو كانت ناقة لا نفع منها إلا بشرب لبنها ، وهكذا رأينا انتصار الله لعبده نوح وهو مغلوب ، وانتصار الله لعبده هود وهو مستضعف ، وانتصار الله لناقة صالح ، دابة ، يعني حيوان.

تمثلت جريمتهم في تحديهم لأمر الله تعالى استكبارا وعنادا ، إذ ليس لهم شهوة ترغمهم على اقتراف هذه المعصية ، وليس لهم مصلحة تغريهم أن يقتلوا الناقة ، فلماذا إذا يحاربون الله تعالى ويقتلونها رغم أن الله أوصاهم بألا يمسوها بسوء ، إنه العناد مجرد العناد ، ولعله الكبرياء والأنفة ، يقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه (الكبرياء **ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار**) [1]

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم : أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك قال فخطب الناس فقال : يا أيها الناس **لا تسألوا نبيكم عن الآيات** فهؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها و يشربون من لبنها مثل ما كانوا يتروون من مائهم ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فوعدهم الله ثلاثة أيام وكان موعدا غير مكذوب ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان تحت مشارق السماوات و مغاربها منهم) [2] .

وتأمل كيف ارتكب الجاني هذه الجريمة (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ) فهي جريمة مشتركة تمالأوا عليها جميعا ، فلم تكن جريمة فردية ، بل نتيجة قرار جماعي اجرامي ، ووكلوا أشقاهم بهذه المهمة ، وهذا الذي تأهب لفعل هذا الجرم استدعى القوى الشيطانية لتسهل عليه مهمة عقر ناقة الله ، فالجميع يعلم بجلاء أنه يحارب الله ورسوله ، ولذلك شرب الخمر ليذهب عقله وهو مقدم على هذا الجرم الشيطاني الذي يمثل تحدي صريح لأمر الله .

فهل السكر سبب لأن تُدفع عنه العقوبة ؟ لا بل أخذهم الله بذنوبهم ، ولم يعفهم فأهلكهم جميعا ، لأنه سكر مختارا وليس مجبرا ، فما يفعله بعد السكر من فعل هو مسئول عنه جنائيا ، فتلك جريمة مركبة

[1]) رواه أبو داود ج2 ص 456 رقم 4090 وصححه الألباني
[2]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 371 رقم 3304 وصححه ، ورواه أحمد في مسنده ج3 ص 296 رقم 14193 ورجاله رجال الصحيح

يتألف ركنها المادي من عدة أفعال مادية مختلفة، يندمج بعضها في بعض لتكوين جريمة واحدة يعاقب عليها بعقوبة مشددة لوصف إجرامي واحد ، فلا يعاقب على تعاطي الخمر استقلالا عن جريمة العقر ، بل يعطى للجريمة وصف واحد يستوجب تشديد العقاب ، حتى لو لم تكن من جنس واحد طالما كانت بقصد نتيجة إجرامية محددة ، مثل حالة السرقة بالإكراه يعطى لها وصف الحرابة في أحوال معينة ،كذلك الخطف المقترن بالاغتصاب ....الخ , فهذه الجرائم تدل على عتو المجرم في الإجرام بما ينبغي تشديد العقوبة عليه ، ولذلك يعامل عتاة المجرمين معاملة عسكرية وليست مدنية ، فتطبق عليهم أحكام الحرابة ، لأنهم يمتنعون بالقوة والسلاح عن الخضوع للسلطان والنظام العام ، فتكون عقوبتهم التقتيل ، وذلك متى كانت أحكام الإسلام تطبق ، فإن لم يكن يطبقها السلطان ، فإن الله ينزل عقوبتهم عليهم كما أنزلها على قوم صالح .

وفي قوله تعالى : (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) تكرار أخير لهذه الآية في هذه السورة ، بأسلوب الاستفهام الذي غرضه التهكم والإهانة والسخرية ممن تعالوا بقوتهم ، وليس أهون علي الله منهم ، وقد ورد مثلها في عذاب قوم لوط لكن بصياغة مختلفة وهي قوله (فذوقوا عَذَابِي وَنُذُرِ) فهذا الأسلوب تضمن تهديدا مباشرا لأصحاب هذه الجريمة الشنعاء التي لم يسبقهم فيها أحد ، وتخالف الفطر السليمة .

يقول الدكتور عبد العظيم المطعني (هذا هو الموضع الأخير الذى ذكرت فيه هذه العبارة: (فكيف كان عذابى ونذر) فحين قص الله علينا قصة " ثمود " ، وقد جاءت مهيئة لتلقى صورة العقاب بعد التشويق إليها عند السامع، ولفت نظره إليها ، ومن هنا ندرك **شدة اقتضاء المقام لهذا التكرار** ، فليست إحدى العبارات فى موضع بمغنية عن أختها فى الموضع الآخر ، إنما هو اتساق عجيب تطلبه المقام من الناحيتين: الدينية والبلاغية ، من **الناحية الدينية** حيث تحمل المؤمنين على التذكر والاعتبار عقب كل قصة من هذه القصص ، ومن **الناحية الأدبية** لأن العبارة: (فكيف كان عذابى ونذر) تأتى عقب كل قصة أيضاً لافتة أنظار المشاهدين إلى "كنه " النهاية وختام أحداث القصة) [1].

وفي قوله (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) هذا هو التشويق الذي ذكره الدكتور عبد العظيم المطعني أن يتأخر تصوير العقاب بعد الاستطراد في توصيف جريمتهم ، فكيف كان عذاب الله لهم ؟ إنها الصيحة الصاعقة ، التي جعلتهم كهشيم القش الذي يُجمع فيوضع في حظائر البهائم .

1) ا.د/ عبد العظيم المطعنى http://amlsobhy.blogspot.com/2010/10/blog-post_4809.html

إنه التدمير الإلهي بأسلحة فتاكة ، وهو أشد ضراوة من أسلحة الدمار الشامل ، سبحان الله **يعذب الله بالماء تارة وبالريح تارة وبالصيحة تارة أخرى** ، فهل بعد هذا الهلاك والفتك من تذكرة للمتقين ؟ إن المتدبر للقرآن الكريم ليرى أن الله تعالى ما أهلك قوم ثمود لذنب اقترفوه غير العتو عن أمر ربهم ، إنه الكبرياء الذي بارزوا به ربهم سبحانه ، فعتوا عتوا كبيرا ، قال تعالى (**فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ**)(الذاريات 44) ، إن الله تعالى ييسر علينا تعلم سننه الكونية لعلنا نتذكر بها ما يجعلنا نتمسك بأسباب النجاة من عذابه سبحانه وتعالى .

وما أوهن ثمود حين صاروا على هذه الهيئة من الفتات ، وكانوا من قبل يستكبرون ، فالهشيم المحتظر هو بقايا النباتات اليابسة التي تداس أسفل أرجل البهائم والحيوانات وتتبول عليها وتتبرز عليها ، يقول الدكتور نظمي خليل (وهي بيئة تساعدل على نمو الكائنات الدقيقة من البكتريا والفطريات وبعض الحشرات والديدان) ، وهكذا أصبح قوم ثمود سمادا عضويا للنباتات حيث يختلط التراب بالروث والبول ويتحلل لصبح على هذه الصورة ، فأرض الحظيرة غنية بالنيتروجين والمواد الكربوهيدراتية) [1].

وفي قوله تعالى : (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) تأكيد على استبدال القرآن الكريم بالمعجزات المادية لإسناد الرسول والتدليل على أن ما جاء به هو وحي من الله ، "فهل من متَّعظ به ومعتبر فيعتبر به، فيرتدع عما يكرهه الله منه"[2]

ولعل الصلوات الخمس التي فرضها الله على أمة محمد ﷺ يتلى فيها القرآن كل ركعة ، هي سبب رفع الهلاك عن هذه الأمة كما حصل في الأمم السابقة ، فعن عُمَرُ بْنُ الْحَكَمِ قَالَ : "كَانَتْ عِنْدَ آبَائِي وَرَقَةٌ يَتَوَارَثُونَهَا — من بقايا أهل الكتاب–، فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَاءُوا بِهَا إِلَيْهِ ، فَقَرَأُوهَا عَلَيْهِ ، فَإِذَا فِيهِ : " بِسْمِ اللَّهِ ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ " ، وَقَوْلُهُ : " الظَّالِمِينَ فِي ثِيَابٍ " ، هَذَا الأَمْرُ لأُمَّةٍ تَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، يَغْسِلُونَ أَطْرَافَهُمْ ، – يعني يتوضأون للصلاة – وَيَأْتَزِرُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ،– يعني يغطون عوراتهم بإحكام – وَيَخُوضُونَ الْبُحُورَ إِلَى أَعْدَائِهِمْ — يعني لا يمنعهم من الجهاد حائل – ، فِيهِمْ صَلاةٌ لَوْ كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ ، مَا أُهْلِكُوا بِالطُّوفَانِ ، أَوْ فِي عَادٍ مَا أُهْلِكُوا بِالرِّيحِ ، أَوْ فِي ثَمُودَ مَا أُهْلِكُوا بِالصَّيْحَةِ ، قَالَ : فَأَعْجَبَ النَّبِيَّ ﷺ ذَلِكَ "[3] .

[1]) هناك تتابعاً منظماً لظهور هذه الفطريات على الروث، ففي البداية تنمو على الروث الفطريات التابعة لرتبة الميوكورات(Order: Mucorales) ، ومنها عفن الخبز، وفطر الميوكر، وهي من الفطريات التزاوجية (zygomycota) يتبعها بعد ذلك على الروث الفطريات الزقية(Ascomycota) ، وأخيرا تظهر الفطريات البازيدية (Basidiomycota)، ففي البداية يحتوي الروث على السكريات العديدة كالسليلوز (Cellulose) ونصف السليلوز(Hemicellulose) ، والنيتروجين، وهذا ينشط وجود أفراد الميوكورات من الفطريات التزاوجية ثم بعد ذلك يسود السليلوز، وهذا يؤدي إلى ظهور الفطريات الزقية، وفي النهاية يتبقى اللجنين، وهذا يؤدي إلى نمو الفطريات البازيدية التي تعمل بقوة وهمة في أرض الحظيرة لتحويل مكوناتها النباتية إلى هشيم مختلط بالتراب، وبقايا الحيوان، وتقوم البكتيريا والحشرات والديدان بفعل مماثل لتحطيم النبات في الحظيرة ليخرجه المحتظر محللا مهشما مفتتا تفتت الخبز في الثريد

https://quran-m.com/كهشيم-المحتظر-معجزة-علمية/#gsc.tab=0

2) تفسير الطبري ج22 ص 595

3) دلائل النبوة للبيهقي – معرفة الصحابة لأبي نعيم ج5 ص 491 رقم 1810– تعظيم قدر الصلاة للمرزوي – وذكره ابن القيم في هداية الحيارى ج1 ص84

المطلب الخامس

آية الله في قوم لوط

قال تعالى : (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[1] إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) (القمر 33-40)

ففي قوله (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ) تذكير بقوم دون قوم ، إذ تخطت الآيات سرد قصة قوم نبي الله إبراهيم ، وانتقلت مباشرة إلى قوم صاحبه نبي الله لوط رغم أن معجزة إبراهيم كانت أظهر حين نجاه الله من النار ، ولعل ذلك لأجل التأكيد علي أن المعجزات كانت ذات حدود مكانية ، لأن الأنبياء كانت دعوتهم محلية تخص قومهم ، فاختصت المعجزة بهم دون غيرهم ، فأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام لم يبتعثه ربه وحده بالنبوة ، بل بعث معه لوط ثم أبنائه اسحق وإسماعيل ، وذلك كله كان في زمن واحد ، فكل نبي كان يختص بعلاج الداء المستشري في قومه .

ولو كانت دعوتهم عالمية لما تعدد الأنبياء في الزمان الواحد ، وتعددت أماكنهم في الزمان الواحد ، أما دعوة النبي محمد ﷺ عالمية ، فلم يبعث الله بعده نبي ، ولذلك كانت معجزته خالدة ، غير مختصة بحدود المكان والزمان ، وهي القرآن الكريم

وفي قوله (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا) تذكير بتلك الظاهرة الكونية الغريبة التي عذب الله بها قوم لوط ، إن اختيار الحجارة الكبريتية أو البركانية لإنزال العذاب بهم لهو معجزة مادية جديدة تضاف إلى سائر المعجزات العلمية التي يمتلئ بها كتاب الله عز وجل، قال تعالى (**إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)(العنكبوت 34-35).

فكانت الحجارة تقذف عليهم من فوهة البراكين ، يقول عالم الآثار الألماني فيرنركيلر : (غاص وادي سديم الذي يتضمن سدوم وغومواره مع الشق العظيم الذي يمر تماما في هذه المنطقة في يوم واحد إلى أعماق سحيقة ، حدث هذا الدمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل)[2]

1) الحَصْبةُ والحَصَبُ والحَصْبةُ الحجارةُ والحصى واحدته حَصَبة - لسان العرب ج1 ص 318 -

أكد العلماء علي طريقة دفن الموتى المتوفين بمرض متلازم نقص المناعة المكتسب (الإيدز) أنها تشبه إلى حد كبير نوع العقاب الذي وقع على قوم لوط من تحريق ثم دفن في أعماق الأرض حتى لا ينتشر الجرثوم الذي حملوه في محيطهم وبين مجتمعاتهم). [1]

وفي قوله تعالى (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ) استثناء للقوم المؤمنين الذين أنكروا المنكر بكل ما أوتوا من قوة ، فهم أهل كل نبي ، وهم الذين سماهم بالحواريين أو الأنصار ، ودوما في كل مشهد تراهم مستضعفون ، وهؤلاء هم الناجون ، أي

---

[2]) وتعتبر منطقة البحر الميت أو بحيرة لوط منطقة زلزالية نشطة يقع فيها صدع تكتوني متجذر ويمتد إلى 300 كم ، وجملة (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود) فربما تعني حدوث انفجار بركاني على ضفتي بحيرة لوط ، ولهذا كانت الحجارة التي انطلقت من سجيل ..وتبدو آثار قوم لوط واضحة عندما تبحر في قارب عبر بحيرة لوط إلى أقصى نقطة جنوبا وعندما تكون الشمس مرسلة أشعتها باتجاه اليمين سترى شيئا مذهلا على بعد معين من الشاطئ وتحت ماء البحر الصافي تظهر حدود الغابات التي حفظتها ملوحة البحر الميت بشكل واضح أغصان قديمة جدا وجذور ضاربة في القدم تحت المياه الخضراء المتلألئة وادي سدوم أجمل أماكن تلك المنطقة في ذلك الزمن حيث كانت هذه الأغصان والأشجار الخضراء ذات يوم والورود متفتحة ...تكشف الأبحاث الجيولوجية عن الناحية الديناميكية لكارثة قوم لوط ، تقول هذه الدراسات إن الزلزال الذي دمر القوم جاء نتيجة لتشكل صدق طويل في الأرض على بعد 190 كم ليشكل حوض نهر الشريعة يشير انحدار النهر نزولا حوالي 145 كم بالإضافة إلى انخفاض البحر الميت بمقدار 400 متر عن سطح الأرض إلى أن حادثا جيولوجيا على جانب من الأهمية قد اتخذ مجراه في حقبة من الزمن ... وعلى امتداد هذا الصدع الممتد إلى خليج العقبة ثم عبر البحر الأحمر لينتهي في إفريقيا لوحظ انشطة بركانية وحجارة بازلتية وبركانية في جبل الجليل في فلسطين وفي المناطق المنبسطة والمرتفعة من الأردن وخليج العقبة والمناطق المجاورة بما يدل على أن هذه المنطقة شهدت كارثة جيولوجية مخيفة ، كتب وورنر كيلر : " وادي سديم الذي يتضمن سدوم وغومورا مع الشق العظيم الذي يمر تماما في هذه المنطقة إلى أعماق سحيقة يدل على أنه حدث دمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل فتحررت القوى البركانية التي كانت هامدة في الأعماق على طول الصدع من ذلك الغور ، ولا تزال فوهات البراكين الخامدة ظاهرة للعيان في الوادي العلوي من الأردن بينما تترسب الحمم البركانية وتتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسي ، وتدل هذه الحمم المتحجرة وطبقات البازلت على تعرض هذه المنطقة إلى هزة عنيفة وبركان ثائر في زمن من الأزمنة

انظر " هارون يحيى الأمم البائدة ص 51 – 61 نقلا عن عالم الإنجيل – علم الآثار والتاريخ آب 1993 ، فيرنر كيللر الإنجيل كتاريخ نيويورك ويليام مورو 1964 صفحات 73- 76

1) الدكتور منصور العبادي – جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية – مقال بعنوان : ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون

تعليمات دفن الموتى والمصابين بمرض الإيدز

1. إبلاغ دائرة الخدمات الوقائية عند حدوث الوفاة.
2. لا يجوز دفن الجثة من قبل ذويها (عندما تكون الإصابة بأحد الأمراض الخاضعة للوائح الصحية الدولية كالحمى النزفية ومرض متلازمة العوز المناعي المكتسب – الإيدز).
3. تدفن الجثة من قبل دائرة صحة المحافظة وتحت إشراف شعبة الأوبئة بالتعاون مع أمانة العاصمة أو البلديات في المحافظات في الأماكن المخصصة لهذا المرض في مقبرة المدينة التي حدثت فيها الوفاة ولا يجوز نقل الجثة إلى منطقة خارج منطقة الوفاة.
4. سد كافة منافذ الجثة ويمنع تسرب الإفرازات منها مع لف الجثة بقماش مشبع بمحلول مادة (الفورمالين) مع التأكد إلى القائمين على العمل بالعملية بوجوب اتخاذهم كافة الاحتياطات اللازمة لمنع انتقال العدوى.
5. توضع الجثة في تابوت معدني في قاعه طبقة خاصة من مادة كالفحم أو نشارة الخشب ومضاف إليه مادة مطهرة (الفورمالين) ويقفل جوانب التابوت وفتحاته باللحيم.
6. يوضع التابوت المعدني في داخل صندوق خشبي بسمك (2سم) وجوانبه غير قابلة لنفوذ السوائل ويحكم إقفاله بواسطة المسامير اللولبية.
7. يحفر القبر بعمق مترين مع إضافة المواد المطهرة إلى قاع القبر وإلى التراب بعد تغطية التابوت به.
8. يكون الدفن بإشراف وحضور ممثل المؤسسة الصحية. وينظم محضر خاص بالدفن وتسلم شهادة الوفاة إلى ذوي المتوفى بعد انتهاء مراسيم الدفن.
9. لا يجوز نقل جثة المتوفى بأحد الأمراض الخاضعة للوائح الصحية الدولية والحمى النزفية ومرض متلازمة العوز المناعي المكتسب (الإيدز) إلا بعد انقضاء فترة سنتين من تأريخ الدفن وبعد الحصول على الإجازة الصحية الخاصة بذلك من وزارة الصحة.

لأن هذا الجرثوم (كما في فايروس الإيدز مثلاً) معدٍ بجميع إفرازات جسد حامله من دم ومني وبول ولعاب، وبمقارنة بسيطة مع التعليمات حول دفن المرضى المصابين بمرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز) الصادرة عن اللوائح الصحية الدولية ترى سبق القرآن الكريم للطب الحديث في الوقاية من أمراض وبائية كهذه فالتقت حقائق الطب والعلم الصحيحين بكتاب الله المؤيدان له على الدوام، وأصبح القرآن مفتاح العلوم، ولو تأملنا الآيات النازلة بحق قول لوط من جهات كثيرة احتوتها لوجدنا أن الله تعالى جعل عقوبتهم المخصوصة بهم وقاية صحية لبني آدم فدفنُهم بالأعماق وتغطيته أجسادهم بالحصى المحترق المتراكم عليهم كالخراسانات الاسمنتية دليل على أن الوقاية من الجراثيم التي يحملونها لا يُتَحصّن منها إلاّ هكذا

http://www.22522.com/vb/showthread.php?t=43790

الفئة الناجية ، فالمقصود بآل لوط ، فهم القلة المؤمنة التي اتبعه ، وهكذا يعرّف الإسلام كلمة (أهل) ، فليس المقصود بهم قرابته وأصاهره ومن ناسبهم ، وإنما أهل دينه ممن اتبعه .

وسبب نجاتهم رغم ضعفهم إلا أنهم أنكروا المنكر باللسان ، ولم يستطيعوا أن ينكروه باليد (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)(هود 80) ، فردت الملائكة (قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) (هود 81) ، ولم تكن امرأته من أهله إذ حق عليها العذاب —مثلهم– لعدم إنكارها المنكر .

وقد أمره الله تعالى أن يخرج بأهله آخر الليل– وهو وقت السحر –، حتى إذا أصبحوا أنزل الله على الظالمين عذابه الأليم ، قال تعالى (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) (هود 81) ، وهكذا يعلمنا الله تعالى **كيف يستفيد المؤمن من الليل في السفر والترحال في حال مجاهدة الكفار حتى إذا أصبح يكون قد انتقل من مكان لآخر وأضحى من حال إلى حال** ، يقول النبي ﷺ **(عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل)** [1] ، وفي رواية (فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار) [2].

وفي قوله تعالى (نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ) فالنجاة من الظالمين نعمة ، وتصريف الشهوة فيما أحله الله نعمة ، ومن أسباب شكر النعمة تصريفها فيما خلقت لأجله ، ولذلك جعل الشرع الزواج نصف الدين ، يقول النبي ﷺ **"إذا تزوج العبد فقد كمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي"** [3] .

فالزواج نعمة وشكر ، فهو تحصين للفرج وإعفاف للنفس ، وشغل بالأهل ودعوتهم للخير وتعليمهم الدين ، وسعي في طلب الرزق لإعالتهم ، واستحلال للحلال ، وتحريم للحرام ، فقوله (كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ) تعليل لنجاته وأهله من العذاب ، بأنهم التمسوا النعمة وصرفوها فيما خلقت له والتزموا بالأحكام التي شرعت لها كالزواج ، قال النيسابوري (أكثر المفسرين على أنه إشارة إلى أنه تعالى يصون من عذاب الدنيا كل من شكر نعمة الله بالطاعة والإيمان)[4].

والأصل هنا أن يعم الله تعالى هذه القرية بالبلاء ولا يستثني منها أحد حتى وإن كان صالحا ، وذلك لقوله ﷺ(يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف قالت عائشة رضي الله عنها قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم إذا

---

[1]) رواه أبو داود ج2 ص 33 رقم 2571 وصححه الألباني
[2]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج20 ص 365 رقم 852 وصححه الألباني انظر الجامع الصغير ج1 ص 266 رقم 2651 ورواه مالك في الموطأ ج2 ص 979 رقم 1767
3) رواه البيهقي شعب الإيمان ج4 ص382 رقم 5486 والطبراني وصححه الألباني انظر الجامع الصغير وزيادته ج1 ص44 رقم 431
4) تفسير النيسابوري ج7 ص 96

ظهر الخبث) [1] ، قال الأحوذي : (إذا ظهر الخبث) هو بفتح الخاء والباء وفسره الجمهور بالفسوق والفجور وقيل المراد الزنى خاصة ، ومعنى الحديث أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون "[2] .

فالله سبحانه لم يهلك نبيه لوط وأهله عليهم السلام ، رغم أن الخبث قد كثر ، نعمة منه سبحانه لأنهم كانوا شاكرين ، ولم يرضخوا للمنكر ولم يسكتوا عنه ، بل طال العذاب كل من سكت ولم ينكر وإن لم يقترف ، **الأمر الذي يصحح لنا مفهوم الشكر** ، وعند كثير من العباد ، ذلك أن **هذه المرتبة – الشكر– لم ينالها نبي الله لوط بمجرد الصلاة ، وإنما أمر بالمعروف ونهى قومه عن المنكر دون أن يكون به قوة يدفعهم عنه** ، حيث قال (لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد) ، فلم يكن يملك القوة لردعهم ، ولكنه أنكر بلسانه ، ليتحقق فيه الوصف ببذل كل قوة ونعمة أنعمها الله عليه في سبيل نصرة دينه وشكر ربه عليها ، فمرتبة الشكر سبب للنجاة من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة (نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ) ، (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (سبأ 13) ، أي قليل منهم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن جاز القول بأن كثير من يصلي ، بل وإن تفطرت قدماه قائما لله يصلي ، ولكنه ظل ساكتا على المنكر ولم ينكره ، بل كان النبي ﷺ يصلي ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فكان يصلي حتى تفطرت قدماه من قيام الليل ويقول (أفلا أكون عبدا شكورا) [3] ، وكان يأمر قومه ويجاهدهم باللسان والسيف حتى توفاه الله وقد كسر الأصنام في مكة وأحيا الإسلام في جزيرة العرب .

وفي قوله تعالى (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) عود لتفصيل القصة بعد الإجمال بذكر نهايتها ، يقول الشيخ الشعراوي (في قصة لوط عليه السلام **يبدأ بنهاية القصة** ، وما حاق بهم من العذاب **ثم يعود إلى تفصيل الأحداث** ، وعَرْض القصة بهذه الطريقة **أسلوبٌ من أساليب التشويق** يصنعه الآن المؤلفون والكُتَّاب في قصصهم ، فيعطوننا في بداية القصة لقطة لنهايتها؛ لإثارة الرغبة في تتبُّع أحداثها ، ثم يعود فيعرض لك القصة من بدايتها تفصيلاً ، إذن : هذا لوْنٌ من ألوان الإثارة والتشويق والتنبيه) [4].

وفي قوله تعالى (فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) دلالة على أن (النذر التي هي الإنذارات)[5] تسبق العذاب ، كما في قوله تعالى (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا) ، وسياق تكذيبهم بالنذر مفصل في قوله تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)(العنكبوت 28-29) .

---

[1]) رواه الترمذي ج4 ص 479 رقم 2185 وصححه الألباني
[2]) حاشية الأحوذي على شرح الترمذي
[3]) رواه البخاري ج1 ص 380 رقم 1078
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5781
[5]) مفاتيح الغيب ج29 ص 54

وفي قوله تعالى (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ..)(37) فضح لما صار إليه حال هؤلاء المسوخ ، وهم يشتهون الأغراب من الرجال ، إذ استجابت خلاياهم الحسية للرجال ولم تستجب للنساء ، يعني أن هؤلاء القوم أصيبوا بانتكاسة هائلة كادت تهدم وتستأصل الجنس البشري برمته لو استشرى أمرهم عندهم دون عقاب الاستئصال الإلهي ، قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) (الأعراف80-81)

تأثرت مستقبلاتهم العصبية برؤية الرجال مباشرة فنقلت للمخ إشارات خاطئة استدعت إثارة الشهوة لهذه الرؤية ، ما يعني أن هناك خلل في البرمجة العصبية البصرية ، أصابها عطن برمجي نتيجة لإلف الفاحشة والإسراف فيها ، لأن التعود على الزنا يؤدي إلى البحث عن المزيد ، وفضول الإنسان لا ينتهي فيجرب شاذة ، فيبدأون بفعل الفاحشة فيما بينهم وأنفسهم ، فإذا جاء الأغراب زاد الشهوة سعارا لمحاولة تجربة المزيد من الشهوة مع الغريب ، وذلك تلبية لنهم الفضول لديهم ، وهكذا حتى وجدناهم فيما بعد يفعلون الفاحشة في البهائم ، لأن فضول الإنسان لا ينتهي إلا إذا التزم أمر الله ، فهؤلاء الشواذ تخطوا فاحشة الزنا التماسا للذة جديدة غير التي ألفوها ، فيفعلون ما لم يألفه الطبع ، ولم يُعرف لفعلهم سابقة من قبل ، يقول النبي ﷺ(**إن أخوف ما أخاف على أمتي من عمل قوم لوط**) [1].

وفي قوله تعالى (..فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ..) (37) علاج مؤقت لهذا السعار والداء العضال ، بطمس أعين هؤلاء الشواذ ، ذلك أن **العين آلة الإرسال إلى المخ** ، ولما كان المخ قد أصابه فيروس يجعله يستحس ممارسة الجنس مع رجل مثله ، وقد تعطل برنامجه الفطري الذي يرى في الرجل صورة لوزير أو معين وليس معشوق يستلذ به لدرجة الجنون والسعار ، وليس أدل على ذلك من أن نبي الله لوط ذكرهم بالفطرة ليصحح لهم ما أصاب عقلهم من عطب لكن المرض العضال كان أقوى من تلك التذكرة ، (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) (هود 78-79)

فعندما يرى الشاذ صورة رجل فإنها تلقي بظلالها إلى خلايا مخ الشاذ بأنه مادة تشتهى ، فيصدر المخ أوامره بإثارة الشهوة في الجسد – بسبب فيروس "تجاوز الحد في المعصية" – خلافا للطبيعة التي لا تستجيب لمثل ذلك ، **فكان لابد من قطع الاتصال بين آلة الإرسال والمخ فترة** يتم خلالها تصحيح الخلل الذي أصاب خلاياهم ، **ثم محاصرة الفيروس الذي أصابهم وإزالته** ، أي منعهم من المعصية ، والحجر عليهم فترة من الزمن ، ولكن ذلك متعذر في هذا الفرض لاستضعافهم نبي الله لوط ، ولذلك كان لابد من قطع الاتصال عنهم حتى يتم استئصالهم بالكلية .

ولذلك منع العلماء النظر للأمرد احترازا من هذه الفتنة ، قال ابن تيمية في الفتاوى "الصَّبِيُّ الْأَمْرَدُ الْمَلِيحُ بِمَنْزِلَةِ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأُمُورِ، وَلَا يَجُوزُ تَقْبِيلُهُ عَلَى وَجْهِ اللَّذَّةِ ؛ بَلْ لَا يُقَبِّلُهُ إلَّا مَنْ يُؤْمَنُ عَلَيْهِ: كَالْأَبِ ؛ وَالْإِخْوَةِ ، وَلَا يَجُوزُ

[1]) رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم في مستدركه وحسنه الألباني انظر صحيح الترغيب والترهيب ج 2 ص 310 رقم 2417

النَّظَرُ إِلَيْهِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ بِاتِّفَاقٍ لِلنَّاسِ ؛ بَلْ يَحْرُمُ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ النَّظَرُ إِلَيْهِ عِنْدَ خَوْفِ ذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ لِحَاجَةٍ بِلَا رِيبَةٍ مِثْلُ مُعَامَلَتِهِ ؛ وَالشَّهَادَةِ عَلَيْهِ ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ كَمَا يُنْظَرُ إلَى الْمَرْأَةِ لِلْحَاجَةِ) [1].

وفي قوله (...فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)(37) امتهان لهم بأن يتذوقوا شيئا من العذاب العاجل الذي أنذرهم به نبيهم لوط وهو طمس أعينهم قبل أن يصبحهم عذاب مستقر ، ولعلهم يتعظون بذلك ويتهيئون للتوبة قبل أن يصبحوا ، ذلك أنهم لما راودوه عن ضيفه ظنوا أنهم سوف يتذوقون لذة الشهوة معهم ، لكن لما طمست أعينهم ذاقوا شيئا من العذاب ، فالابتلاء بالمصائب أحيانا يكون سببا في كسر الشهوات المستعرة ، فطمس الله أعينهم بمجرد محاولتهم مراودة ضيوف نبي الله لوط عليه السلام ، فكان ذلك بمثابة إنذار شديد لهم ، لعلهم يتوبون ويثوبون إلى الله ، لاسيما وقد انقطعت وسيلة الاتصال بالشهوة المحرمة، أي ضعفت أسباب الشهوة ، وضاقت مجاري الشياطين .

وفي قوله (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ)(38) أي أن إمهالهم حتى يحل الصبح كان لأجل إتاحة الفرصة لهم أن يتوبوا بعدما ذاقوا عذاب طمس أعينهم فترة مؤقتة ، وهي فترة كافية لينتبهوا ويتوبوا

يقول النبي ﷺ(**إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**) [2] قال العلماء "أي لا يعاجلهم بالعقوبة بل يمهلم ليتوبوا" [3] ، و"هذا من كرمه عز وجل أنه يقبل التوبة حتى وإن تأخرت، فإذا أذنب الإنسان ذنباً في النهار فإن الله تعالى يقبل توبته ولو تاب بالليل"[4]

لكن لما لم يبد الندم عاجلهم الله بالعذاب صباحا ، ونظير ذلك قوله (**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**) [هود:81]، "دلالة على تعجيل العذاب" [5]، فكان لابد من إهلاكهم وتدميرهم تطهيرا للجنس البشري من شذوذهم الجنسي وإسرافهم غير المعقول ، وقد قال النبي ﷺ (**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**) [6].

ووصف العذاب هنا بأنه عذاب مستقر كناية على أن المقصود به تعذيبهم عذاب هلاك لا إنذار ، ذلك أنه سبقه طمس أعينهم ، فكان ذلك هو إنذار لهم ، أما وقد صبحهم ذلك العذاب فقد نزل بهم الهلاك واتصل بعذاب الآخرة ، قال العلماء " **اتصل بموتهم** ، ثم بما بعد ذلك من عذاب القبر ، **ثم عذاب جهنم** [7]، قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ)[8] ، أي " لأنَّه أفضى بهم إلى عذاب الآخرة" ،

---

[1]) الفتاوى الكبرى ج3 ص 202
[2]) رواه مسلم ج4 ص 2113 رقم 2759
[3]) أبو الحسن عبيد الله الرحماني/ مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج8 ص 23 رقم 2351
4) محمد بن صالح بن محمد العثيمين شرح رياض الصالحين ج1 ص 22
5) التحرير والتنوير ج27 ص 196
[6]) رواه أبو داود ج2 ص 564 رقم 4462 وصححه الألباني
7) البحر المحيط ج10 ص 194
8) رواه ابن ماجة ج12 ص 320 رقم 4257 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن ابن ماجة ج9 ص 267

وقالوا "لا يفارقهم حتى يُسلمهم إلى النار ، وفي وصفه بالاستقرار إيماء إلى أنّ عذاب الطمس ينتهي إليه" [1] ثم هم بعد ذلك في عذاب الآخرة مستقرون على هذا الحال .

وفي قوله (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ) (39) تكررت هذه الآية ، وهي خطاب لقوم لوط بعدما طمس الله أعينهم ، أي ليذوقوا هذه المرة عذاب الله الذي هو الإهلاك بعد أن تحققت موجباته الثلاث:-

1- الإنذار ثم المراء فيه
2- الإصرار على المعصية بعد الإنذار .
3- الإمهال دون مبادرتهم بالتوبة .

فأما إنذارهم فذلك لقوله سبحانه (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا **وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**) (القصص 59)

بيد أن مِراءهم في أمر الدعوة ومجادلتهم لأهل الحق يحيلهم إلى دائرة المهددين بعذاب الله تعالى العاجل ، يقول سبحانه (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ **وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ**)(الشورى34-35) ، والعجيب أنهم يجادلون نبيهم لوط عليه السلام فيما لا تستقيم مصلحة البشرية إلا به ، بل تنتكس الفطرة وتفسد المجتمعات ويهدم الجنس البشري بما يفعلونه من منكر ، بل اتهموا نبي الله لوط ومن معهم الإجرام وتهمتهم أنهم أناس يتطهرون

والأمر الثاني الذي استوجب عذابهم أنهم **أصروا على المعصية وجهروا بها** ولم يخجلوا منها وإنما تسارعوا للإتيان بها على الملأ ، وذلك حين جاءته الملائكة في صورة رجال فضيفهم عليه السلام في بيته ، وحين علم قومه بهم أسرعوا ليفوزوا بما انتكست فطرتهم فيه ، قال سبحانه (وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) (هود78) ، فلم يكن من نبي الله تعالى إلا أن وعظهم وذكرهم بالفطرة السليمة (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ) ،(هود 79) لكنهم لم يلتفتوا إليه وأصروا على ما انتكسوا فيه (قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) (هود79)

فلما لم ينجح النقاش الفكري معهم ليطفئ سعارهم الذي ألم بهم ، وقد انقطعت عنه سبل الدعوة ، لم يكن منه إلا أن آوى إلى الله مستنصرا به عليهم ، قال سبحانه (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ) (هود 80) .

1) البحر المديد ج6 ص 195

وبالفعل دخل قوم لوط بيته –في إصرار– عازمين على فعل الفاحشة بضيوف نبي الله إبراهيم ، فطمس الله أعينهم وأعماهم عنهم فرجعوا خائبين .. ، ولعلهم بهذه المعجزة يتوبون ويرجعون إلى الله تعالى ، بيد أن نار الشهوة لا يزال مستعرة فيهم ، وأي شهوة هذه لتشتهي ما تستنكره الفطر السليمة .

سبحان الله ، يمهل ولا يهمل ، لقد أمهلهم إلى الصبح ،وذلك هو المستوجب الثالث للعذاب أن يأتي عليهم الصبح ولا يتوبون ، قال سبحانه (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)(هود 81) لكنهم لم يفقهوا ذلك ولم تبد منهم علامات الإقبال على الله والتوبة من ذلك ،فأهلكهم الله تعالى بحجارة أمطرت عليهم ، قال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) (هود82-83) ، وهذا أشبه بالحجارة البركانية التي تلقيها فوهة البراكين .

وفي قوله (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) آخر تكرار لهذه الآية في السورة ، وفي ذلك إشارة إلى أن في الذكر الحكيم ما تتيسر به حياتنا ، وبدونه تكون في مشقة وعسر ، وفيه إيماء إلى الزواج ، وأن الزواج – الذي هو نصف الدين – علاج لآفات البشر مهما تدنت أخلاقهم وصفاتهم

قال حقي " فى التكرير تقريرا للمعانى فى الأسماع والقلوب وتثبيتا لها فى الصدور وكلما زاد تكرير الشىء وترديده كان أمكن فى الصدر وأرسخ فى الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ، وفى القصة إشارة إلى إنجاء لوط بسبب صفاته الروحانية وإهلاك قومه بسبب انتكاس صفاتهم البشرية الطبيعية ، **كل من غلبت عليه الشهوة البهيمية يجب عليه أن يقهر تلك الصفة ويكسرها بأحجار ذكر لا اله الا الله ، ويعالج تلك الصفة بضدها** ، وهو العفة التى هى هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذى هو إفراط هذه القوة والخمود الذى هو تفريطها ، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع "المروءة" بخلاف أهل الشهوة ، **وحال النفس إما افراط أو تفريط فلا بد من إصلاحها** من جميع القوى والصفات فإنها هى التى حملت الناس على الفجور وإيقاع الفتنة بينهم وتحريك الشرور" [1].

1) تفسير حقي ج14 ص 415

المطلب السادس

آية الله في قوم فرعون

قال تعالى (وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) (41-42)

قوله (وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ) هكذا يشير القرآن إلى حركة الدعاة في الأرض ، "اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى " (طه 24) ، دعوة تتحرك إلى فراعنة العالم – وهم كثيرون — لينذروهم ، انظر من أين جاء لآل فرعون النذر ؟ ومن أين أتي نبي الله موسى إليه ؟ جاء موسى لفرعون بعدما استقر في أرض مدين وتزوج فيها ، ثم تركها وانطلق عائدا إلى مصر التي يظلم فيها فرعون أهلها ، ما يعني أن المسلم لا يركن إلى الراحة والدعة والمرح ، ويترك الظلم وراء ظهره ، ولا يقف بدعوته عند حدود المسجد ، وإنما يطوف بها أرجاء العالم ، هذا ما فعله نبي الله موسى عليه السلام ، فبعدما استقر مع زوجة صالحة ورجل صالح عند أهل مدين ، ولديه البيت والمزرعة والعمل ، لم يكتف بذلك ، بل ضحى بالدنيا وتحرك بدعوته إلى مصر لينقذ بني إسرائيل ، فمنَّ الله عليه بهذه الحركة أن جعله نبيا ورسولا .

قوله (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا..) فكان قوم فرعون —وفيهم بني إسرائيل–أشد الناس تكذيبا بالأنبياء ، وقد آتاهم الله تعالى من الآيات والبينات ما لم يأت أحدا من العالمين ، (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ)(المائدة 20)

فما هي الآيات التي كذب بها آل فرعون ؟ ، جاءتهم تسع آيات بينات مبصرة لكنهم استكبروا أن يؤمنوا بها رغم أن أنفسهم استيقنتها ، قال تعالى (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ .... فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (النمل9 14) .

قوله (فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) قال الزركشي : (واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه ، فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ، لأن الألفاظ أدلة على المعاني فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة ، ومنه قوله تعالى (**عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ**) فهو **أبلغ من قادر** لدلالته على أنه **قادر متمكن القدرة لا يرد شيء عن اقتضاء قدرته** ، ويسمى هذا قوة اللفظ لقوة المعنى) [1]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [2].

1) محمود بن عبد الرازق أسماء الله الحسنى ج32 ص 137 رقم الإيداع بدار الكتب 2836/ 2004
2) رواه البخاري ج14 ص 268 رقم 4318

المطلب السابع

نصر الله للمؤمنين معجزة مادية يؤيد الله بها هذا الدين

قال تعالى : (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ [1]* أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ* إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ [2] * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) (القمر 47-53)

ففي قوله (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ) قال ابن عاشور "هذه الجملة كالنتيجة لحاصل القصص عن الأمم التي كذبت الرسل من قوم نوح فمن ذكر بعدهم ولذلك فصلت ولم تعطف ، وقد غير أسلوب الكلام من كونه موجها للرسول ﷺ إلى توجيهه للمشركين لينتقل عن التعريض إلى التصريح اعتناء بمقام الإنذار والإبلاغ" [3].

وفي ذلك **تصبير للرسول** ﷺ على إيذاء قومه له ، **وتصبير للدعاة من بعده** على ما يلقونه من قومهم ، فمهما بلغ تكذيب الناس لهم وافتراءهم عليهم وصدهم عن سبيل الله ، فعليهم أن يتذكروا الرسل من قبل ،وقد لاقوا مثلما لاقى رسول الله ﷺ و، كان قومهم في ذات شدة الكفر وقسوة القلب ، ومع ذلك **لم يَعْجَزوا عن واجب الدعوة ، ولم يُعْجِزوا الله شيئا** ، فالله قادر على إهلاكهم كما قدر على إهلاك من سبقهم

فهذه سنة الله تعالى في الظالمين ، قال سبحانه (**أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ** وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ **فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ** وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) (الأنعام 6) ، وقال سبحانه (**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا**)(مريم 74) ، فقد يمهل الله تعالى الظالمين ويمدهم بالمال والبنين ، وقد يبدو للناس أن الأمر قد استقر لهم في الأرض لكن إلى متى يمهلهم ؟ قال سبحانه (كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ **كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا** فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الُّدنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (التوبة 69) ، يمهلهم لأجل مسمى لعلهم يرتدعون عن غيهم .

وفي قوله تعالى (أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ [4]) إشارة إلى أهل الكتاب وموقفهم من دعوة النبي ﷺ ، وأنهم يفترون على الله الكذب ويحرفون الدين ليجعلوا أنفسهم تارة أبناء الله –كذبا وبهتانا – أحباب الله – افتراءً عليه – أو يقولون تارة أخرى

---

1) قال السيوطي : والزبر هي الكتب المنزلة على الأنبياء والمعنى : إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله في شيء من كتب الأنبياء

2) زبر الكتاب يزبره زبرا : أي كتبه أو أتقن كتابته ، جمع (زُبُر) – انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم ج 3 ص 83 مجمع اللغة العربية ، وانظر لسان العرب ج4 ص 315 والقاموس المحيط ج1 ص 510

3) التحرير والتنوير ج27 ص 199

4) الزبر : الكتب الإلهية ، منه قوله سبحانه (جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) آل عمران /184 – وله معنى ثاني : كتاب الحفظة ومنه قوله : وكل شيء فعلوه في الزبر القمر /52 – انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم ص 524

(**لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى**) ، ويقولون في كثير من الأحايين [كتبت لنا براءة من الله فيما مضى من كتب منزلة على رسلنا] –كذبا وافتراءً أيضا – ومنهم من يظن أنه مهما تجاوز في المعصية فإنهم لن يمكثوا في النار أبدا ، (وقَالُواْ **لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)(آل عمران 24) ، استصغروا ذنوبهم واستهانوا بما أعده الله تعالى من عقاب للخارجين عن حدوده والمنتهكين لمحارمه ، استهزاءً بما أخبر به نبيهم من عذاب الله ، (**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون** ، فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) (الزخرف 7-8) .

وفي قوله (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) رد على تأميل كفار قريش أن يهزموا النبي ﷺ يوم بدر ، حيث جمعت قريش فرسانها وصناديدها لمقاتلة النبي ﷺ ولم يكن به قوة على صدهم ، فقال النبي ﷺ وهو في قبة (**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم**) ، فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك وهو في الدرع فخرج وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) [1]، وقال وهيب حدثنا خالد وكان ذلك **يوم بدر** ، فحدث ما حدث يوم بدر وقتل صناديد قريش وانتصر جيش الإسلام ،وهكذا يأتي الله بالنصر لعباده المؤمنين على قومهم المستكبرين والمصرين على الظلم ومحاربة الإسلام والمسلمين .

قوله (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) هذا هو حكم الله القدري "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ " أي مهما جمع الكفار الجنود والسلاح والأموال فإنه سيهزمون أمام من يؤيده الله تعالى وينصره من عباده ، تلك هي الحقيقة التي يؤمن به المؤمنون.

وفي قوله (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) فهي داهية أي مصيبة عظيمة ، وأمر يعني ليس شيء من الدنيا يعادلها في المرارة والضنك ، قال الطبري (عليهم من الهزيمة التي يهزمونها عند التقائهم مع المؤمنين ببدر)[2]، حيث إنهم فجعوا يوم بدر وصدموا بالهزيمة ، وصدمتهم بقيام الساعة أشد .

قال تعالى (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)(يس52) ، فهذه الآيات وأمثالها أول ما نزل من القرآن تأليفا لقلوب العباد على عقيدة الإسلام وترسيخا لها ، وذلك قبل نزول الآيات المنهجية التي تعني بالتعليم للأخلاق ثم الأحكام العملية والتشريعية سواء في المجال التجاري أوالسياسي والاقتصادي ، تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (وما يضرك أية قرأت قبل إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا لقد نزل بمكة على محمد ﷺ ولم وإني لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده)[3] ، فكان التذكير بالآخرة والإنذار بها ، (بل الساعة موعدهم) هو المدخل لترسيخ عقيدة

[1]) رواه البخاري ج3 ص 1067 رقم 2758
[2]) تفسير الطبري ج22 ص 603
[3]) رواه البخاري ج4 ص 1910 رقم 4707

الإسلام في قلوب المسلمين ، وكانت تلك هي الرسالة الأولى لمخاطبة الكافرين والمكذبين (والساعة أدهى وأمر) حتى يقتنعوا وإلا فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، سنة الله في الظالمين عاجلا أم آجلا .

وفي قوله (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) وصف المكذبين بالأنبياء والمعرضين عن الآيات البينات ،والمعاندين والمستكبرين عن أن يذعنوا لحكم الله تعالى وشرعه أنهم – جميعا – مجرمون ، لأنهم يرتكبون أفظع الجرائم – باعتبارهم لا يدينون لله بشئ بحسب معتقداتهم – من سلب أموال وهتك أعراض وإسراف في الفواحش – فلا وازع ديني يزعهم ولا عقل يحجر علي تصرفاتهم ، فكانوا بهذه المثابة مجرمين.

ووصفهم بأنهم في ضلال لأنهم يستبدلون ظلمات الشرك والكفر بنور الإسلام ، كما قالوا على نبيهم (بل هو كذاب أشر) ، والحقيقة أنهم يعبدون أهوائهم وشهواتهم ولا يقروا بالعبودية لله تعالى ، فهم بهذا الاعتبار ضالين ، **فإذا كانوا اليوم في ضلال ، فإنهم غدا في سعر** ، باعتبار ما سيؤول إليه حالهم ، يقول النبي ﷺ (إن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار) [1] .

وفي قوله (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) استطرد في وصف عذابهم بما يؤكد على أن الجزاء من جنس العمل ، **فلأنهم كذبوا بنواصيهم واستهزؤوا بألسنتهم ، فاليوم يسحبون على هذه النواصي – وجوههم – ليذوقوا مس النار** ، تلك النار التي يصلاها من فكر وقدر ثم أدبر واستكبر ، قال عز وجل (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) (المدثر 42-47) ، فلم يفعلوا شيئا من أعمال البر ليشفع لهم عند الله .

وفي قوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) إظهار للدلالة الإعجازية التي تؤيد هذا الدين ، وقد أشارت الآيات – فيما سبق – إلى حكم الله القدري "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، فكلما انهزم الكفار ظهر أمر الله القدري ، وظهرت الدلالة المادية لإعجاز هذا الدين ، إذ لو كان الله تعالى قد عذب الذين من قبلنا بطوفان تارة والصاعقة تارة والصيحة تارة أخرى ، فإنه **يعذبهم اليوم – أي المجرمين – بأيدي المؤمنين** لأنهم هم الحق الذي يقذفه الله على الباطل فيدمغه ، **(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ)** (التوبة 14) ، فذلك هو قدر الله تعالى الذي قدره بأن يصرع الحقُ الباطلَ فيهزمه وتعلو كلمة التوحيد ، ولن يتغير ذلك أبدا لأنها سنة الله الأزلية ، شريطة أن يكون الصراع بين أهل الحق والباطل ، لا بين باطل وباطل ، ولا بين من كان على الحق ثم انقلب إلى الباطل أو حاد عن جادة الصواب .

[1]) رواه البخاري ج5 ص 2261 رقم 5743

ولفظ "شيء" الوارد بالآية يقصد به النعمة والمصيبة ، فكلاهما بقدر من الله ، يقول النبي ﷺ (**تنزل المعونة من السماء على قدر المؤنة وينزل الصبر على قدر المصيبة**)[1]، أخرج البخاري في تاريخه عن ابن عباس قال (كل شيء بقضاء وقدر حتى وضعك يدك على خدك)[2]

يقول صاحب الظلال (إن هذا النص القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة , مصداقها هذا الوجود كله .... ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة – فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيئة له – وصل في **إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض** إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد ; لأن التناسق يقتضي وجودها في المواضع التي حددوها ، فوجودها في هذه المواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها . . ثم يتحقق هذا الذي فرضوه ، ويدل تحقيقه على الدقة المتناهية في توزيع هذه الأجرام في هذا الفضاء الهائل بهذه النسب المقدرة التي لا يتناولها خلل أو اضطراب ! ووصل في **إدراك التناسق في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها , لتكون صالحة لنوع الحياة** التي قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن افتراض أي اختلال في أية نسبة من نسبها يودي بهذه الحياة كلها أو لا يسمح أصلا بقيامها ..... إنه **قدر الله** وراء طرف الخيط البعيد لكل حادث ولكل نشأة ولكل مصير ، ووراء كل نقطة وكل خطوة وكل تبديل أو تغيير ، **إنه قدر الله النافذ الشامل** الدقيق العميق ، وأحيانا يرى البشر طرف الخيط القريب ولا يرون طرفه البعيد ، وأحيانا يتطاول الزمن بين المبدأ والمصير في عمرهم القصير , **فتخفى عليهم حكمة التدبير** ، فيستعجلون ويقترحون ، وقد يسخطون أو يتطاولون ! والله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر **ليسلموا الأمر لصاحب الأمر** , وتطمئن قلوبهم وتستريح **ويسيروا مع قدر الله في توافق وفي تناسق** , وفي أنس بصحبة القدر في خطوه المطمئن الثابت الوثيق) .

وفي قوله (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) تقريب لإنفاذ مشيئة الله تعالى ، بضرب مثال توضيحي وهو استعارة مكنية حيث شبه قضاء الله وأمره وقدره الكوني في نفاذه بسرعة لمح البصر .... ، وذلك حتى لا يستعجل المؤمنون النصر ، ذلك أن الله تعالى قد أنفذ قدره في الأقوام السابقين وهزمهم وأهلكهم ونصر المؤمنين ، وكانوا من قبل يستعجلون العذاب ، **فظاهر الخطاب يومئ بأن قريشا كانوا يستعجلون إنزال الله قدره بهم** فيتساءلون مستنكرين متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ أي متى يعذبنا الله تعالى بأيديكم إن كنتم حقا جنوده المؤمنون ؟ فترد عليهم تلك الآية بأن **ذلك ليس ببعيد** فمهما طال الصراع بين الحق والباطل ، فكأنه لحظة كلمح بالبصر ، وأمر الله نافذ ، ومشيئته ماضية ، وسنته هي الحاكم ، سيهزم الجمع ويولون الدبر

لكنهم– أي المجرمون – لم ينتهوا عن التشكيك في نصر الله للمؤمنين ، فكما حاولوا إبطال هذا الدين وإقصائه عن واقع الناس وحياتهم ، فإنهم يحاولون أن يهدموا أركانه من جهة الإيمان بقدر الله الذي قدره ووعده الذي وعد به المؤمنين ، فيعملون على تشكيك الناس في نصر الله

[1]) كنز العمال ج6 ص 353 رقم 16023 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 532
2) الدر المنثور ج9 ص 349

فعن أبي هريرة قال (جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ... إنا كل شيء خلقناه بقدر) [1] ، وكأنهم يجادلون الذين آمنوا في قضاء الله وقدره ، وأن النصر للمؤمنين والهلكة والهزيمة على الكافرين .

وفي قوله (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ [2]فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) خطاب لكفار قريش [3]، وتهديد بإنزال ما أصاب " الذين كفروا وكذبوا بالقدر قبلهم" [4] بهم كذلك ، فإذا أراد الله لفرعون أن يهلك فقد هلك ، وقد أراد لثمود وعاد أن يهلكوا وقد هلكوا ، وكذلك قوم لوط ، فهلاكم ليس بعصي على الله من هلاك قريش يوم بدر وأمثالها ، ولم يقع ذلك بهم إلا كلمح بالبصر ، فمن الذي كان يظن أن هؤلاء المستضعفين من الصحابة يقتلون في بدر أرباب الكفر ، إنه قدر الله ومشيئته ولابد أن ينفذ فيهم وفي أشباههم من القوم الحاضرين الذين لم يدكروا بذكر ولم يتعظوا بوعظ .

وفي قوله (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ[5]) أي كل ما فعله هؤلاء المجرمين لن يمضي دون حساب أي أنه في علم الله وقضائه وقدره ، فهو مكتوب عنده في الصحف ، قال القرطبي (في الزبر أي في اللوح المحفوظ)

ذلك أن الله قد نفى في أكثر من موضع في كتابه أن يكون قد خلق السموات والأرض من باب اللهو واللعب ، قال عز وجل (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) (الأنبياء 16-18) ، فسنة الله التي قضاها أن يزهق الباطل بعدما يقذفه بالحق .

قال القرطبي : (الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه وتعالى **قدر الأشياء** أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها **ثم أوجد منها** ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه ، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق **ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة** وأن ذلك كله إنما **حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه** سبحانه لا إله إلا هو ولا خالق غيره كما نص عليه القرآن والسنة) .

وفي قوله تعالى (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) كناية عن إحاطته سبحانه بما يفعلون وصبره على ما يعملون وإمهاله إلى يوم يحاسبون ، فما **علا هؤلاء وما استكبروا إلا وقد علم الله تعالى منهم ذلك** ، وقد سبق علمه ما سوف يفعلون , لأنه

---

[1]) رواه مسلم ج 4 ص 2046 رقم 2656
2) وأصله جمع شيعة وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع - تفسير الألوسي ج20 ص 105
3) تفسير القرآن للعثيمين ج12 ص 27
4) جلال الدين السيوطي : الدر المنثور ج9ص 349
5) الزبر : الكتابة انظر الصحاح تاج اللغة ج2 ص 667 – الزبور : الكتاب انظر العين ج7 ص 362
والزَّبْرُ الكتابُ والجمع زُبُورٌ ، والزَّبُورُ الكتاب المَزبُورُ والجمع زُبُرٌ – انظر لسان العرب ج4 ص 315 – وانظر معجم ألفاظ القرآن الكريم على نحو ما أشرنا في الآية52

مسطور في اللوح المحفوظ ، فلم يغب عن علم الله تعالى ظلمهم للمؤمنين ولا كذيبهم للمرسلين أو تحريفهم لكتاب رب العالمين

قال تعالى " وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا "(الكهف 49) ، **فتطابق ما سطرته الملائكة عليهم مما فعلوه مع ما سبق في علم الله تعالى وقدره في شأنهم** ، وآية الإعجاز في ذلك كله أن **سننه تسير وفق تقديره** ومشيئته سبحانه ، وقد وعد بهلاك الظالمين ، قد أثبت التاريخ ذلك حقا سواء أكان في غابر الزمان أو لا يزال يسعى إليه المؤمنون اليوم ، **فكلما تحقق النصر تأيد هذا الدين بدلالة إعجازية أخرى** .

يقول الدكتور زغلول النجار : "القرآن الكريم يتحداهم بقول الحق تبارك وتعالي(سيهزم الجمع ويولون الدبر) (القمر:45) ، ونحن مؤمنون بذلك وواثقون منه ولكننا نستعجل القصاص, ونلح علي الله بالرجاء أن ينزله بهؤلاء, الظلمة المتوحشين, والمفسدين في الأرض, والمتجبرين علي الخلق بأسرع وقت ممكن.. . وتؤكد الآيات في سورة القمر **حتمية القصاص الرباني** وذلك بقول الحق(تبارك وتعالي): إنا كل شيء خلقناه بقدر*, وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر*, ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر*, وكل شيء فعلوه في الزبر*, وكل صغير وكبير مستطر) (القمر 49 -53) " [1]

1) جريدة الأهرام بقلم الدكتور زغلول النجار - من أسرار القرآن - الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية
http://www.ahram.org.eg/archive/2004/5/10/OPIN8.HTM

المطلب الثامن

خاتمة السورة

قال تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ [1] * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ [2]) (القمر 54-55)

اختتمت السورة ببيان يؤكد النهاية السعيدة لمصير عباد الله المؤمنين الذي آمنوا بالغيب حقا ويقينا ، مثلما بينت من قبل مصير خلافهم من المجرمين ، لتنقلنا الآيات إلى الصورة المقابلة ، قال ابن كثير (أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم مع التوبيخ والتقريع والتهديد) [3]

قوله (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ) تأكيد على رؤية المتقين في مقام رفيع ومنزلة عالية ، إنها جنات ونهر ، وليست هي بجنة واحدة بل جنات ، ودائما تعطف الجنات على الأنهار ، بما يشعر المؤمن بالطمأنينة ، فلا ينشغل بالبحث عن مصدر للري ، ولا يخشى مستقبل هذه الجنان وهو يرى الأنهار ترويها.

قوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) المقعد المقصود هو منزلة أهل الجنة ، قال ابن عاشور : (المقعد : مكان القعود ، والقعود هنا بمعنى الإقامة المطمئنة) ووصف المقعد بالصدق له دلالة علي أن الله صادق في وعده لا يخلفه قال الله تعالى (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)(الأنبياء 9) ، صدق وعده أولا حين أنعم عليهم ونجاهم من العذاب العاجل الذي أهلك به المجرمين في الدنيا ، وصدق وعده آخرا بقوله (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)(النساء 69) ، ذلك أن (الصدق : موافقة الشيء لاعتقاد المعتقد واشتهر في مطابقة الخبر)[4] ، فقد طابق ظن المؤمنين في الله وإيمانهم بجنته التي وعدهم الله بها المنزلة التي تبوؤوها في الآخرة ، صدق الله فيما وعد ، وصدق المؤمنون في إيمانهم بوعد الله الذي وعدهم به قال تعالى (وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)(الزمر 33) .

وليست الجنة هي مرتبتهم فحسب ، بل إن **منزلتهم عند مليك مقتدر** ، الله مالك الملك والقادر على كل شيء ، وقد سبق علمه كل شيء ، ولا راد لما أمر ولا مانع لما يعطي ، يقول النبي ﷺ (إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى " قالوا يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال " هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فو الله إن وجوههم لنور وإنهم على نور **لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس** وقرأ هذه الآية (**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**) [5].

---

1) النهر اسم جنس بمعنى الأنهار، وهو بمعنى الجمع والكثرة ، ومنه قوله :صلى الله عليه وسلم" أهلك الناس الدينار والدرهم "والمراد بالدينار والدرهم الجنس لا الواحد : فاضل السمرائي لمسات بيانية على سورة القمر

2) قال ابن عاشور : والمليك : فعيل بمعنى المالك مبالغة وهو أبلغ من ملك ومقتدر : أبلغ من قادر وتنكيره وتنكير مقتدر للتعظيم

3) تفسير ابن كثير ، سورة القمر

4) ابن عاشور : التحرير والتنوير

5) رواه أبو داود في سننه ج2 ص 310 رقم 3527 وصححه الألباني

الفهرس

تـمـهـيـد :- 2
المطلب الأول 7
آيات الله زواجر للعباد والمعجزات نذر 7
المطلب الثاني 19
آية الله في قوم نوح 19
المطلب الثالث 27
آية الله في قوم هود 27
المطلب الرابع 32
آية الله في قوم صالح 32
المطلب الخامس 38
آية الله في قوم لوط 38
المطلب السادس 46
آية الله في قوم فرعون 46
المطلب السابع 47
نصر الله للمؤمنين معجزة مادية يؤيد الله بها هذا الدين 47
المطلب الثامن 53
خاتمة السورة 53